منهج القرآن في تربية الرجال

دكتور عبد الرحمن عميره

Bibliotheca Alexandrina
0098965

عكاظ
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج القرآن في تربية الرجال

تأليف

عبد الرحمن عميرة

شركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة لشركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرأْ بِاسْمِ رَبّكَ الَّذِي خَلَقْ(١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقْ(٢) اقْرأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ(٣) الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمْ(٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

سورة العلق

آيات من ١ ـ ٥

مقدمة

هل يمكن أن يكون للمسلمين منهج للتربية. . ؟

وهذا المنهج مستمد من كتاب الله مباشرة. . ؟

وإذا كان ذلك في الإمكان فلماذا لم يفد المسلمون من هذا المنهج. . ؟

لماذا لم يحاولوا تطبيقه في حياتهم لينظم شؤونهم ويربي أجيالهم. . ؟

ونتساءل. . لماذا اتجه رجال التربية عندنا في العالم الإسلامي إلى الشرق والغرب لاستيراد الأفكار، وتسول الوسائل من خلف السهوب ومن وراء البحار؟

لماذا اتجهوا إلى موائد غيرهم. ؟ لاقتباس قواعد الأخلاق وأصول التربية وعلم النفس والاجتماع. . ؟

ولماذا العلوم الإنسانية بالذات. . ؟ ولنا منها رصيد كبير، بل الرصيد الأوفى، والتاريخ يشهد بأن رجالنا حملوا في يوم من الأيام العلوم الإنسانية، وانداحوا بها في أربعة أركان الأرض؛ فمدنوا، الدنيا وهذبوا العالم، وقرروا الحق للإنسان. .

لو اتجه رجالنا لاقتباس الجانب العلمي المحض الذي ينشأ عنه رقي الصناعة وزيادة الإنتاج، ونمو العمران، لو فعلوا ذلك ما كان هناك حرج ولا بأس، لأننا نشعر حقيقة أننا في حاجة إليه. .

واقتباسه لا يمثل خطراً على عقائدنا ومبادئنا.

ولكن الظاهرة التي تلفت النظر أن نظريات «دارون» و«فرويد» و«جون دوى»

و«دور كايم» هي القاسم المشترك الأعظم في كل النظريات التي نستوردها في مجال التربية وعلم النفس والاجتماع. . .

ونظريات «ماركس» و «إنجلز» في الاقتصاد والسياسة. .

ولماذا هؤلاء الأقطاب بالذات. . ؟

ألأنهم لا يعرفون رباً ولا يؤمنون بدين. . ؟

ألأنهم لهم باع طويل في تدمير الأخلاق والقيم. . ؟

أم لأنهم من اليهود أو عملاء لهم، ومخطط اليهود معروف. . ؟

تقول: «بروتوكولات» حكماء صهيون:

«يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا، إن «فرويد» منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه»[1].

وتقول «البروتوكولات» أيضاً

«لقد رتبنا نجاح «دارون» و «ماركس» و «نيتشة» بالترويج لآرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح بكل تأكيد»[2]

هذه هي حقيقتهم. .

فلماذا اتجهنا إليهم ولا زلنا نتجه. . ؟

لماذا فعلنا ذلك ونحن أصحاب عقيدة. . ؟

لماذا نستورد أفكار غيرنا ونحن حملة رسالة. . ؟

لماذا يا رجال التربية فعلتم ذلك. . ولنا رصيدنا من المعرفة والإيمان والتشريع. . ؟

---

(١) مطبوعات المكتب العربي الفلسطيني

(٢) المصدر السابق

أهي التبعية للغير. . ؟ والتقليد لكل جديد وغريب. . ؟
وماذا كانت نتيجة هذه التبعية. . وإهمال ما نملك إلى ما لا نملك. . ؟
أن تتابعت هزائمنا في ميدان الحروب
وتتابعت هزائمنا في ميدان السياسة
وتتابعت هزائمنا في ميدان الثقافة
وكان أخطر أنواع الهزائم اتباعنا لغيرنا في الفكر والثقافة والتشريع، لأنه أبعد المسلمين عن سر قوتهم، وأسباب عظمتهم، وأقام التبشير والإلحاد والاستعمار سياجاً بين المسلمين وبين قرآنهم.

ولم يكتف بذلك، بل اهتم اهتماماً كبيراً بتشويه تاريخهم، وتحطيم كيانهم، واغتصاب حضارتهم، واستعمل في سبيل إنجاح خططه كل الوسائل والحيل. . .

استعمل جنوده ومعداته، واستعمل وسائل إعلامه وأتباعه. . واستغل وسائل التعليم والتربية، ونجح في تخريج طبقة جديدة إسلامية الإسم والمظهر أجنبية الروح والمخبر. . ؟

يقول الشاعر المسلم محمد إقبال:
«إن التعليم - يعني على الطريقة الغربية - هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء، وإن هذا الحامض - هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيماوية»(١).

لقد طور الغرب أساليبه، فلم تعد جنوداً ترابط، ومعدات تقام، ولكنه أصبح نفوذا يحرك الأفراد من الخارج، وتبعية وتنفيذاً لأوامره في الداخل. . عن طريق «الدبلوماسية» تارة، والفن والإعلام تارة أخرى، وتوريد الأفكار مرة ثالثة. .

. . يقول الدكتور عبد الوهاب عزام:

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ الندوي

«اجتمعت هذه الفتن كلها على الشرق، فزلزلت إيمانه، وحيرت وجدانه وأزاغت بصره، وغزت عقله وقلبه، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب، وتفكر بعقوله، وإذا هم مستسلمون لكل ما تطلع به أوربا، منقادون لكل ما تأمرهم به، متهافتون على كل ما اتصل به، يحقرون أنفسهم وآباءهم، وميراث حضارتهم وتاريخهم . .

والخلاصة أن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم، كما يأخذون منسوجات القطن والصوف، ومصنوعات الحديد والنحاس وأصناف الأحذية . .(١) .

إن ذلك كله ما كان يتم لو كان منهج التربية الإسلامي قائمًا ومنفذاً، ولو نشأت أجيالنا في ظل هذه التربية . . وكانت له سلوكاً ومنهجاً للفظ هذا الزيف، الذي يلف بعض حياتنا . . ويكاد يكتم أنفاسنا . .

ولو تحصن شبابنا بدينه وقيمه، لأعاد للبشرية رشدها، وردها إلى صوابها وحال بينها وبين التيه الذي تغذ السير فيه . .

ولو كانت كتيبة الإيمان، كتيبة القرآن قائمة، نقول: لو كانت هذه الكتيبة في الساحة، لما سمحت لأحد الأقزام من عملاء الشيوعية . . أن يتبجح ويعلن على العالم العربي والإسلامي قوله «لقد انتهت آلهة الأساطير، وولت أديان الاستغلاليين» .

وذهب أفيون الشعوب المخدر إلى غير رجعة، ودخلنا في عصر الاقتصاد، رب الأرباب، المتحكم في رقاب العباد، عصر الجماهير الزاحفة المتحررة الواعية، التي لا تعرف كهنوتاً ولا جبروتاً، وإنما تؤمن بلقمة الخبز ونداء الجسد، والتطور المادي، وتعاليم «كارل ماركس»(٢)

(١) مقال للكاتب في ملحق السياسة الأدبي ـ نقلا عن الحلول المستوردة د/ يوسف القرضاوي .
(٢) دولة القرآن للأستاذ/ طه عبد الباقي سرور ص ١٦

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾(١)
وصدق ربي في قوله:

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾(٢)

ولعلنا نتساءل.. هل المسلمون بوضعهم الحالي شيء في الميزان..؟
وهل هم بهذا الوضع سائرون على الجادة..؟

وأين كتاب الله منهم..؟

وهل لا يزال يهيمن على حياتهم.. ويتبعون قواعده وأصوله في القضاء بينهم وتوجه قواهم إلى ما يحب الله ويرضى..؟

وإذا كان الجواب بالنفي.. فماذا نحن فاعلون..؟

إن هذا البحث دعوة للعودة إلى منهج التربية الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية... لنعيد للبشرية رشدها، ونردها إلى صوابها وعقلها...
ثم ماذا؟

نرفعها من إسفافها في الوحل إلى شفافية الطهر والنور، فهل نحن فاعلون..؟ نرجو ذلك من الله..

د. عبد الرحمن عميرة

(١) سورة الكهف آية رقم ٥
(٢) سورة يونس آية رقم ٣٩

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	ز
تمهيد	١
تعريف التربية	٣
نشأة التربية وأهدافها	٩
التربية الإسلامية وأثرها في سلوك الأفراد	١٣
الإسلام والعقل	٢١
تربية العقل	٢٥
١ ـ منهج الإسلام في تربية العقل	٢٧
٢ ـ منهج القرآن في تربية العقل	٤٣
٣ ـ دعوة الإسلام العقل للتأمل في نواميس الكون	٤٩
تربية الجسم	٥١
١ ـ منهج القرآن في تربية الجسم	٥٣
٢ ـ منهج القرآن في حماية الجسم	٥٩
٣ ـ الصلاة وتربية الجسم	٦٥
تربية الروح	٧٥
١ ـ منهج القرآن في تربية الروح	٧٧
٢ ـ التقوى في منهج التربية	٩٩

منهج القرآن بين الدوافع والضوابط ١٠٩
١ ـ منهج القرآن في تربية الدوافع الفطرية ١١١
٢ ـ دافع الطعام والشراب ١١٧
٣ ـ دافع الجنس ١٢٣
٤ ـ دافع التملك ١٢٩
٥ ـ دافع الخوف والرجاء ١٣٥
٦ ـ دافع الحب والكره ١٤٣
من وسائل التربية ١٥١
١ ـ التربية بالموعظة ١٥٣
٢ ـ التربية بالقصة ١٧٣
٣ ـ التربية بالأحداث ١٨٥
٤ ـ التربية بالعقوبة ١٩٣
نماذج فاضلة للتربية الإسلامية ١٩٩
أثر التربية الإسلامية في سلوك الأفراد ٢٣٥
المراجع ٢٤٣

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد ﷺ - وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اجعل الحق هدفي من كل أعمالي، واجعل الصدق شيمتي، والإخلاص للحق ديني، والقرآن حجتي، آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وبعد

فهل يمكن للباحث في مجال العلوم الإنسانية أن يوفق إلى تعريف جامع مانع للتربية، تربية الإنسان في أطوار حياته المختلفة، طفلاً ويافعاً وشاباً، وكهلاً إلى آخر حياته؟

أم أن ذلك من الصعوبة بمكان؟.. نظراً لاختلاف وجهات النظر بين رجالات التربية وعلماء النفس والتي تحكمهم في أغلب الأحيان عوامل ذاتية من الطبع، والوراثة، والنشأة والثقافة، وعوامل سياسية ووطنية في بعضها الآخر..؟

الحقيقة التي يلمسها كل باحث في هذا المجال، أن علماء التربية في القديم والحديث اتفقوا في بعض أساسيات التربية، واختلفوا في البعض الآخر اختلافاً

يكاد يكون جوهرياً، نظراً لاختلاف العصور، واتجاهات الأمم، وتنوع عوامل البيئة، ونظرة كل منهم إلى طبيعة الإنسان وتكوينه..

ونكاد لا نعدو الصواب إذا قلنا: إن حصر التعريفات، والاصطلاحات التي أدلى بها رجال الفكر في التربية تربو على العد، وتستعصي على الحصر.

الأمر الذي يجعل الباحث المدقق في حيرة أمام هذا الحشد الهائل من الآراء والاتجاهات، وبالتالي لا يستطيع أن يقدم تعريفاً للتربية أقرب إلى الحقيقة، دون الإحاطة بهذه الآراء المختلفة، التي يترتب تبعاً لتحديدها، حصر أهداف التربية واتجاهاتها... والله الموفق..

تعريف التربية:

سنحاول بمشيئة الله - في هذه العجالة أن نقدم بعض التعريفات التي تعتبر دالة على بعض اتجاهات العلماء لا محيطة بها . .

فالتربية عند أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م)

إعداد الفرد ليصبح عضواً صالحاً في المجتمع[١]، وعنده أن تربية الفرد ليست غاية لذاتها وإنما هي غاية بالنسبة للغاية الكبرى، وهي نجاح المجتمع وسعادته، وهو يرى أن صلاح الفرد لا يكون إلا بمعرفة الخير وتقديره إياه، وعلى هذا فلا يكون الفرد عضواً صالحاً إلا إذا كان عارفاً بالخير لأن معرفة الخير فضيلة . .

فإذا تركنا أفلاطون واتجهنا إلى رجل آخر قريب منه في الزمن كأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م)
نراه يعرف التربية بقوله: إعداد العقل لكسب العلم[٢]

ويرى «فترينو دافلتر» (Vittorino Doefeltre) أشهر المربين بإيطاليا في عصر النهضة أن التربية تنمية الفرد من جميع نواحيه العقلية، والخلقية والجسمية، لا لمهنة

---

(١) تاريخ التربية لمونرو ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز ص ١٣٢
(٢) دائرة معارف المدرسين ص ٤٠، وراجع تاريخ التربية لعبد الله المشنوق ص ٩

خاصة ولكن ليكون مواطنا صالحاً مفيداً لمجتمعه، قادراً على أداء الواجب العام والخاص[١].

ونكاد نرى توافقاً بين ما قاله «أفلاطون» في العصر القديم، وبين ما نادى به «فلتر» في عصر النهضة، من أن كليهما، يطالب بإعداد الفرد الصالح الذي يخدم مجتمعه الكبير، وأن أفلاطون يرى أن الغاية من ذلك كله سعادة المجتمع في النهاية، حتى وإن كان ذلك على حساب الفرد.

أما فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م).

الذي عاش في عصر الكشوف العلمية، فيرى أن التربية ليست غايتها أن تجعل الناشئين خبيرين بالعلوم، وعارفين لها بالطرق التقليدية القديمة، ولكن غاية التربية أن تفتح أذهانهم، وتوجههم إلى طريقة كسب العلوم، حتى يستطيعوا الاستفادة منها متى أرادوا، وذلك بمنحهم الحرية العقلية، التي تمكنهم من إدراك كل أنواع المعارف وتفهمها»[٢].

ويقول ليترى (Littre):

«إن التربية: هي العمل الذي تقوم به لتنشئة طفل أو شاب، وإنها مجموعة من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب، ومجموعة من الصفات الخلقية التي تنمو»[٣].

وفي هذا التعريف نرى «ليتري» يفرق بين العمل الذي نمارسه وبين نتيجة هذا العمل ويرى، أن اكتساب المهارات الفكرية أو اليدوية شيء مختلف عن نمو الصفات الخلقية، ثم إن هذا التمييز بين المهارات والصفات يحتاج أيضاً، إلى مزيد من التفكير..

---

(١) التربية وطرق التدريس الأستاذ صالح عبد العزيز وزميله جـ ١ ص ٣٦

(٢) التربية وطرق التدريس صالح عبد العزيز وزميله جـ ١ ص ٣٦.

(٣) التربية العامة تأليف رونيه أوبير ترجمة. د. عبد الله عبد الدايم ص ٢٠

وبهذا يكون «ليترى . . متفقاً مع مفكر من علماء المسلمين الذين تكلموا في التربية وهو أحمد بن محمد بن مسكويه، الذي يرى أن المعارف بعضها مكتسب وبعضها فطري، أو بعبارة أخرى أن مادة المعلومات مكتسبة، أما صورتها ففطرية[١].

ويذكر معجم «هاتزتفيلد (Hatzfeld) ودار مستر (Darmestet) وتوما (Thma) إن المجمع العلمي الفرنسي لم يكن يفهم من التربية سوى تكوين النفس والجسد، وكان يجعل منها ومن التعليم شيئاً واحداً إذ يرى فيها - أي التربية - العناية التي نقدمها لتعليم الأطفال سواء فيما يتصل برياضة النفس أو رياضة الجسد[٢].

أما «هربارت (Herbart) ١٨٢٠ - ١٩٠٣م (سبنسر) فأنه يخالف ما نادى به أفلاطون، وما قاله (فلتر) حيث يرى أن التربية ذاتية، وتكون لصالح الفرد نفسه، ويعرفها بأنها: موضوع علم يجعل غايته تكوين الفرد من أجل ذاته بأن يوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة. . [٣]

فإذا أردنا أن نتعرف على بعض آراء مفكري الإسلام في التربية وتناولهم لها فإننا نرى ابن ماسكويه ٤٢١ هـ يعرف التربية بقوله: هي أدب الشريعة، والأخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها الطفل[٤]، فالتربية عنده تعوُّد، ومن شب على شيء شاب عليه، وعلى الأمة الإسلامية أن تعوِّد أطفالها على الأخذ بأدب الشريعة، حتى تكون لهم سلوكا ومنهجاً وعلى الأسرة أن تبدأ ذلك مع أبنائها بداية مبكرة. .

أما ابن سينا (أبو علي الحسين ٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) فالتربية في نظره: مسايرة

---

(١) التربية في الإسلام. د/ أحمد فؤاد الأهواني ص ٢٣٢.
(٢) التربية العامة تأليف رونيه أوبير.
(٣) المصدر السابق
(٤) التربية في الإسلام د. أحمد فؤاد الأهواني ص ٢٣٣ وراجع مقدمة الأب لويس شيخو مقالات فلسفية لبعض مشاهير وفلاسفة العرب ص ٥٣

ميول الصبي، ثم توجيهه إلى الصناعة أو المهنة التي تتفق وميوله[١].

فابن سينا يرى أن هناك أشياء فطرية يولد الطفل مزوداً بها، وعن طريق الملاحظة والتجربة يمكن التعرف عليها...

والإمام البيضاوي صاحب كتاب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المشهور بتفسير البيضاوي (عبد الله بن عمر البيضاوي ٧٩١هـ)، يقول عند تفسيره لفاتحة الكتاب:

(أصل الرب بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به تعالى للمبالغة، فتربية الناشيء على هذا الأصل، هي العمل على إيصال الناشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً[٢].

وكلمة الإمام البيضاوي «شيئاً فشيئاً» إشارة لطيفة إلى الأسلوب التربوي الذي يتناسب وطبيعة الطفل.

ويكاد كثير من علماء المسلمين أن يتفقوا على أن التربية:

«عملية تحقيق النمو المتزن المنسجم لجميع استعدادات الفرد، الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية، حتى يصل إلى كماله»[٣].

والمدقق في التعاريف السابقة يرى التباين بين أقوال العلماء، نظراً لاختلافهم في طبيعة الإنسان وتكوينه بين عقل فقط، أو روح فقط.

أو جسد هو الكيان الحقيقي للإنسان.

ومن هنا كانت مناهجهم قاصرة، وبرامجهم ناقصة، تعجز عن تكوين الإنسان السوي..

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير الإمام البيضاوي جـ ١ ص ٧

(٣) التربية وطرق التدريس للدكتور عبد الكريم عثمان وزميله جـ ١ ص ١٤

فلما جاء الإسلام كانت نظرته للإنسان شاملة، ولم يفعل كما فعلت المذاهب السابقة عليه أو التالية له ـ والتي تناولت الإنسان أجزاء وتفاريق . .

ومن هنا كان الاختلاف بين منهج الإسلام والمناهج الأخرى في تربية الإنسان.

وسنحاول جاهدين ـ بمشيئة الله ـ أن نستعرض سوياً أهداف التربية وأغراضها عبر التاريخ، ليتحقق للقارىء صدق ما هدانا الله إليه، وعلى الله قصد السبيل . . .

نشأة التربية وأهدافها

لا شك أن التربية نشأت بظهور الإنسان على الأرض، وشعوره بكيانه باعتباره فرداً في مجتمع كالأسرة والقبيلة.

وكانت غايتها في ذلك الزمان البعيد أن يعلِّم الكبارُ الصغارَ سبل العيش والسلوك في حياتهم البدائية، فكانت الفتاة تساعد أمها فيما تقوم به، فتعلمت منها شؤون المنزل الضرورية للحياة البدائية، أما الصبي فكان يلحظ ما يقوم به الكبار من الصيد أو محاربة العدو، وتعلم بهذه الصورة أساليب الحياة.

وهذه الأنماط البسيطة من التربية أخذت تختلف وتتطور على مر العصور من بيئة إلى بيئة ومن عصر إلى آخر، وكان كل تجمع إنساني يكيف نفسه بمقتضيات محيطه وظروفه، ويصطنع لنفسه من العوامل ما يلبي حاجاته ورغباته..

وإذا أردنا أن نستعرض أنماطاً من التربية على مر العصور فإننا نجد أن التربية في مصر القديمة كانت تعمل على إعداد طبقة معينة من الكهنة والقضاة والمهندسين وجباة الضرائب والجنود، وكان هدفها دنيوياً ودينياً، فالدنيوي يعد المتعلمين في الفنون المختلفة مما يضمن لهم المعيشة الراضية، والديني يعمل على محبة الآلهة في الآخرة بالتعبد والتقرب إليهم[1].

---

(١) ص ١٧ من كتاب تاريخ التربية لمنرو ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز

وفي الصين: كانت التربية تلتزم بتعاليم «كونفوشيوس» الذي كان يقول توجد خمس حواس، وخمس سيارات، وخمسة ألوان، فكذلك توجد أيضاً خمس فضائل، وهي العدل والنظام والحكمة، والأمانة، والإحسان[١].

أما التربية في اليونان، فإنها كانت تمتاز على سواها، لأنها أعطت المواطن حرية الفكر والابتكار مما ساعد على رقي التربية وتطورها.

يقول أرسطو: توجد نقطة واحدة يستحق الأرسطيون من أجلها الثناء، وهي أنهم كانوا يعتنون كل الاعتناء بتربية أطفالهم بصورة علمية تناسب محيطهم، وكان ذلك من قبل الحكومة.

وكان هدف التربية عندهم أن يعدوا أطفالهم شبانا كاملي القوة البدنية شجعانا وجنوداً مطيعين كل الطاعة للقانون والحكومة[٢]

التربية في اليابان:

وفي اليابان كان الغرض من التربية هو تخريج موظفين مخلصين للدولة عن طريق تربية عواطفهم، نافعين لها عن طريق معارفهم التي تعلموها، وكانت معاهدهم، ومصانعهم ونظم الحياة عندهم ترمي إلى هدف العظمة الوطنية[٣]

التربية المسيحية:

أما في المسيحية فكان الغرض العملي عند رجالها في القرون الوسطى هو إماتة

(١) ص ١٨ من كتاب رائد التربية العامة وأصول التدريس عبد الحميد فايد.
(٢) تاريخ التربية لعبد الله المشنوق ص ٢٧
(٣) كتاب (Oine dunation) بر تراندرسل ص ٣١

الشهوات وإهمال الجسم، حتى تتطهر الروح وتنجو من عذاب جهنم، ووسيلة ذلك الطهارة، والفقر والطاعة (١).

ثم لم تلبث أن اهتمت بالأبحاث الكلامية دفاعاً عن العقيدة المسيحية فنشأت الفلسفة المدرسية المبنية على المنطق اليوناني والجدل، فأصبحت التربية عبارة عن رياضة فكرية (٢).

التربية عند المسلمين:

لم يكن هدف التربية عند المسلمين دنيوياً محضاً كما كان عند اليونان والروم مثلاً، ولم يكن دينياً محضاً كما كان عند المسيحية في الصدر الأول، وإنما كان دينياً ودنيوياً معاً، فقد كانوا يرمون إلى إعداد الفرد المسلم للدنيا والآخرة، وفي القرآن الكريم، والحديث النبوي وآثار السلف ما يدل على ذلك قال الله تعالى:

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (٣)

وإذا كانت أهداف التربية في القديم والحديث تختلف فيما بينها، وتكاد تتفق في النهاية في الغاية من التربية، وهي إعداد المواطن الصالح.

فإن الإسلام يتجه إلى ما هو أبعد من ذلك، ويجعل الغاية من التربية هي:

إيجاد الإنسان الصالح، الذي يلتزم نهج القرآن، ويتأدب بأدب الإسلام، الإنسان العالمي الذي يعتقد أن الناس كلهم خلق الله، فهم إخوة في الخليقة.

لن يفرقهم الجنس أو اللون.

ولن يتفاضلوا بالعصبية أو القبلية.

---

(١) دائرة المعارف للمدرسين مادة تربية نشرها لوري

(٢) التربية العامة وأصول التدريس للأستاذ عبد الحميد فايد ص ٢٥

(٣) سورة القصص آية رقم ٧٧

ولن يسود بعضهم بعرض زائل من مال أو عقار، ولن يستعبد بعضهم بعضاً لأي سبب من الأسباب فالناس كلهم سواسية.

﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾(١)

والناس كلهم صائرون إلى الله في النهاية فهم إخوة في المصير..

﴿ وأن إلى ربك المنتهي ﴾(٢)

والناس كلهم من نفس واحدة فهم إخوة في الإنسانية.

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٣)

والناس كلهم عليهم أن يعبدوا الله، ويلتقوا في حماه فهم إخوة في الاتجاه.

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾(٤)

فهل نجح منهج التربية الإسلامي في تنظيم سلوك الأفراد وردهم إلى مولاهم؟ وإذا كان، فكيف تم ذلك..؟

للإجابة على هذا السؤال نأمل أن نقطع شوطاً آخر في المنهج.؟؟

---

(١) رواه الإمامان البخاري ومسلم
(٢) سورة النجم آية رقم ٤٢
(٣) سورة النساء آية رقم ١
(٤) سورة البقرة آية رقم ١١٥

التربية الإسلامية وأثرها في سلوك الأفراد

جاء الإسلام ومن بين أهدافه تربية أمة من الأمم لتحمل هذا الدين الخالد إلى البشرية كلها. تربية توافق الفطرة البشرية، وتتلاءم مع النفس الإنسانية، ولا تحيد قيد أنملة عن الجبلة التي فطر الناس عليها.

جاء الإسلام . . يربي الإنسان خليفة الله في الأرض، يربيه قلباً وروحاً ويربيه جسداً وعقلاً، ويربيه أخلاقاً وسلوكاً، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى، أفق الإنسانية، آخذاً بيده، حتى يحيله في النهاية صورة حية من تصورات الإسلام للإنسان الكامل.

ويصنع منه طاقة كونية فعالة، تهيمن على الكون وتسخره لتحقيق الخلافة في الأرض . .

ويجعل منه في النهاية قوة عزيزة أبية، لا تذل ولا تضعف، ولا تهن ولا تجبن، بل تواجه الأحداث في إيمان وثقة من عون الله العلي الكبير. وتجاهد هذه القوة أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء البشرية كلها، وهي مطمئنة إلى نصر الله.

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾[1].

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤٠

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى في نزول القرآن منجمًا على رسول البشرية محمد ﷺ.

﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلاً** ﴾[١].

نزل القرآن منجمًا ليتدبر في عمق، وتنفذ تعاليمه على أنماط الحياة، ويكون للبشرية منهجاً ودستوراً، وقائداً ودليلاً.

دستوراً للحياة الفردية، ودستوراً للحياة الجماعية، وقائداً لها يوجهها إذا بعدت، ويبصرها إذا أخطأت، ويأخذ بيدها بعيداً عن وعورة الحياة ومزالق الطريق.

يقول صاحب كتاب «معارف القرآن» إن من يتدبر القرآن الكريم يبدو له جلياً أن الإسلام عبارة عن نظام حياة يسمى ديناً[٢].

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[٣].

وكل من يتناول القرآن بالتلاوة والتدبر، يرى أنه كتاب عقيدة وتشريع، وكتاب تربية وتوجيه، ودعوة من الله سبحانه وتعالى للإنسان لدراسة الكون والحياة، دراسة متأنية هادئة، ليعرف ويتعلم، ويفهم ويتدبر، ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح..

إن في القرآن منهجاً متكاملاً في التربية، وهو منهج من الدقة والشمول بحيث لا يترك جزئية من جزئيات الإنسان دون أن يلقي عليها الضوء.

وهو منهج يختلف اختلافاً جوهرياً عن كل المناهج البشرية ويختلف في تصور

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٠٦

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٩

للإنسان، عن كل التصورات الأرضية له.. وهنا يكمن السبب في نجاح المنهج الإسلامي في تربية الأفراد حيث فشلت مناهج الآخرين..

اختلاف التصور الإسلامي للإنسان عن كل التصورات الأخرى

الإنسان في منهج الإسلام ليس روحاً فقط كما تدعي بعض المذاهب الفلسفية فتحاول جاهدة أن تبرز الجانب الروحي على بقية الجوانب الأخرى..

وليس عقلاً فقط كما تصوره قادة الفكر اليوناني في الزمن القديم، ونادت بعض المذاهب التي تدعي التقدمية في عالمنا المعاصر، إلى درجة أنها ترفض كل ما لم يدخل في مجال العقل أو يخضع لسلطانه[١]. وليس هو جسداً فحسب كما اعتبرته دولة الرومان وإسبرطة[٢] ـ على وجه الخصوص ـ فوجهت اهتمامها إلى الجسد بالعمل على إبراز مفاتنه رغبة في التمتع بجماله أو تقوية عضلاته لينازل الوحوش والحيوانات المفترسة إرضاء للسادة والأباطرة منهم..

الإنسان في منهج الإسلام عقل، وجسد وروح، وأي تجاهل لأي من هذه الثلاث، يبعد الباحث أو المفكر عن التصور الصحيح للإنسان.

والإنسان في التصور الإسلامي يختلف عن التصور الذي نادت به المدرسة الداروينية.. من أنه ثمرة لتطور العفن وتخمر الطين..

فالإنسان عند «داروين»[٣] خرج من باطن الأرض فهو من صنع الطبيعة أما في التصور الإسلامي، فالإنسان خلق من طين الأرض، فهو من صنع الله.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

(٢) المصدر السابق

(٣) صاحب كتاب (أصل الأنواع)

الإنسان عند المدرسة الدارونية: خلاصة التربة الأرضية وكفى.. والإنسان في منهج الإسلام: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله قال تعالى:

﴿ إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾(١)

الإنسان عند المدرسة «الدارونية» مبتوت الصلة إلا بالأرض من باطنها خرج وإليها يعود.

والإنسان في منهج الإسلام.. خليفة الله في الأرض، ودنياه طريق إلى آخرته يقول الله تعالى:

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾(٢)

ويختلف التصور الإسلامي للإنسان عما توصل إليه «فرويد» (صاحب مصحة الشواذ) والذي قرر في معمله.. «أن الطاقة الجنسية هي الكيان الحقيقي للإنسان».

وما دام ذلك كذلك، فهي الدافع وهي المحرك وهي الموجه..؟؟

فهل هذا هو الإنسان..؟

إن منهج الإسلام: لا يغفل الطاقة الجنسية وأثرها في حياة الإنسان، ولكنه لا يعطيها أكثر مما تستحق، فهي طاقة من طاقات الإنسان، وهي وسيلة، ولكنها ليست غاية.

الجنس في منهج الإسلام، وسيلة لاستمرار النوع يقول الله تعالى:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾(٣)

---

(١) سورة ص آية رقم ٧١ - ٧٢

(٢) سورة النجم آية رقم ٤٢

(٣) سورة النساء آية رقم ١

والجنس وسيلة للسكن والراحة، والمودة والرحمة، ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكمْ مودة ورحمة ﴾[١].

هذا هو الجنس في منهج الإسلام، دافع ولكنه ليس كل الدوافع، وجزئية في تركيب الإنسان لا تتعدى قدراً محدوداً.

ويختلف التصور الإسلامي للإنسان عما توصل إليه التفسير «السيكلوجي» الذي حصر الإنسان في شعور التفوق والبروز كما قرر «أدلر»، أو شعور النقص ومحاولة التعويض كما قرر (يونج) تلميذ «فرويد» إن هذه الجزئية التي توصل إليها (إدلر) و(يونج) ليست هي الإنسان على أي حال ولكنها جزئية من جزئياته فقط.

والإنسان في التصور الإسلامي ليس هو أمشاج المدرسة التجريبية التي تدخل به داخل المعمل، وتضعه على المشرحة، وتعمل فيه مباضعها، وتخرج في النهاية لتقرر: أن الإنسان جسد فقط.

ولعل لها بعض العذر، لأن أدواتها وآلاتها داخل المعمل تعجز عجزاً كاملاً عن معرفة الجوانب الأخرى..

والإنسان في التصور الإسلامي: ليس هو حيوان المدرسة السلوكية، التي تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات، وردود الفعل الشرطية المنعكسة، أو مجموعة من الحالات المتتابعة بلا جدوى، لأن هذا التحليل ينطبق على الحيوان لا الإنسان. ليس هو إنسان «ماركس»[٢] و (أنجلز)[٣] صاحبي التفسير المادي للتاريخ واللذين يحاولان تفسير الإنسان من الخارج، وحصر تاريخ البشرية في البحث عن الطعام.

ليس هو الإنسان كما صورته الوجودية، أو كما أرادته الشيوعية أو الرأسمالية.

---

(١) سورة الروم آية رقم ٢١

(٢) كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) صاحب كتاب رأس المال (أصل الشيوعية)

(٣) أنجلز فردريك ١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م ـ له كتاب عن (لودفيج فوير باخ) عن المادية والمثالية.

الإنسان في التصور الإسلامي . . ليس هو إنسان القوة، أو الخاضع لها عند «جون ديوى»[١] أو الإنسان الذي ترتبط حياته بالقهر الاجتماعي الذي لا يراعي مشاعر الفرد ورغباته كما قرر «دور كايم»[٢] صاحب التفسير الجمعي للتاريخ . .

«حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي . . »

الإنسان في منهج الإسلام هو خلق الله سبحانه وتعالى، والذي أعلن مولده بنفسه .

﴿ إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ﴾[٣]

وقلده أمر الخلافة في الأرض .

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[٤].

وأسجد له ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[٥]

وعلمه وأدبه . .

﴿ الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان ﴾[٦]

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾[٧]

وهداه إلى الطريق المستقيم، ووضح له طريق الخير والشر

﴿ وهديناه النجدين ﴾[٨].

---

(١) فيلسوف أمريكي استبدل بمشكلة الصدق مشكلة القيمة (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢م)
(٢) صاحب مذهب في علم الاجتماع
(٣) سورة الحجر آية رقم ٢٨
(٤) سورة البقرةآية رقم ٣٠
(٥) سورة الحجر آية ٢٩
(٦) سورة الرحمن آية ١ ـ ٤
(٧) سورة البقرة آية ٣١
(٨) سورة البلد آية ١٠

ومنحه حرية الاختيار

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾(١)

وأعطاه الإرادة ليفرق بين الحق والباطل بين الفجور والتقوى.

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾(٢)

وزوده بالإدراك ووسائله

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾(٣)

وأنزل له منهجاً للتربية والتوجيه

منهج يتناول الإنسان من تاريخ ولادته، ويتتبعه طفلاً، ويافعاً، وشاباً، وكهلاً جتى آخر حياته. .

وهو منهج متكامل لا يقبل تنمية ولا تكميلا، لأنه من صنع الله، فلا يملك أي إنسان أن يضيف إلى منهج الله شيئاً، ولا يملك أن يعدل فيه قليلاً أو كثيراً.

هو منهج متكامل لأنه من لدن اللطيف الخبير **﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾**(٤)

صانع منهج التربية الإسلامية، هو صانع الجهاز الآدمي وموجده، والخبير بكل خلجة من خلجاته، وبكل خلية من خلايا جسمه، وبكل ذرة من ذرات تكوينه.

﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾(٥)

فهو الأعلم بما يصلح للبشرية كلها في كل زمان ومكان، يصلح لها في مجال التشريع والحكم.

---

(١) سورة المدثر آية ٣٨.

(٢) سورة الشمس آية ٧، ٨.

(٣) سورة الملك آية ٢٣

(٤) سورة الأعلى آية رقم ٢، ٣

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٢

في مجال التربية والتوجيه.

في مجال الاقتصاد وعروض التجارة، وكل ما لا تصلح البشرية إلا به

﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1]

إذا كان ذلك كذلك فما موقف الإسلام من العقل..؟ أوقف منه موقف المعارض له المقيد لحريته الرافض لآرائه..؟

أم وقف منه موقف المؤيد له، المبارك لأحكامه، المطلق له حرية البحث والقول؟

أم حد له حدوداً لا يتعداها، ووضع له قواعد لا يتخطاها..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع سوياً شوطاً آخر في البحث.

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٤

الإسلام والعقل

الدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة(١) ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاعة. فلا ترجمان بين الله وبين عباده يملك التحريم والتحليل، أو يقضي بالثواب والعقاب، ودين هذا شأنه لن يتجه فيه الخطاب بداهة إلى غير الإنسان العاقل.

وإذا كانت كتب الأديان الكبرى أشارت إلى العقل أو التميز، فإن ذلك كان يأتي عرضاً غير مقصود، وقد يلمح فيه الإنسان شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه. . أما في الإسلام فإن العقل لا يذكر إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه. . وفي القرآن آيات كثيرة تحث المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. .

قال تعالى:

﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا

(١) التفكير فريضة إسلامية ـ للأستاذ عباس محمود العقاد

به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾[١]

ومن الآيات الثانية قوله تعالى . .

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذي لا يعقلون ﴾[٢]وأيضاً : **﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾**[٣]

والعقل في الإسلام له دوره في قضية الإيمان ومنهج الحياة ونظامها . . ولقد حدد الإسلام له دوره ووضع له القواعد والأصول لذلك .

فمن ذلك أنه يتلقى عن الرسالة ، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول (ﷺ) ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ، وينبه العقل إلى تدبر دلائل الهدى ، وروحيات الإيمان في الأنفس والآفاق وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح ومنهج النظر الصحيح .

وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول والرفض ، بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ـ ولكنه ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله المقصود بها والمراد منها ، إن هذه الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح ، لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها ومتى ثبت النص كان هو الحكم ، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه ، سواء أكان مدلوله مألوفاً أو غريباً عليه .

إن للعقل أن يعارض مفهوماً عقلياً بشرياً للنص بمفهوم عقلي بشري آخر له ،

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٣ ـ ٥

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٢

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٧٠

هذا مجاله ولا حرج عليه في هذا ولا حجر، ما دام هناك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام المتعددة.. وحرية النظر مكفولة للعقول البشرية في هذا المجال الواسع..

إن الإسلام دين العقل نعم بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ولا يقهره بخارقة «مادية» لا مجال له فيها إلا الإذعان، ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر - دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق.

ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه.. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات، لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر.. وليس هو حكمًا في صحتها أو - بطلانها.. وليس هو مأذوناً في قبولها أو رفضها[1].

فهل وفق الإسلام في توجيه العقل إلى هذا الطريق وإقامته على هذه الأسس..؟ أسس التلقي عن الرسول الذي لا ينطق عن الهوى.

ثم محاولة فهم النصوص والاقتناع بها.

ثم التسليم الكامل والخضوع لأوامر الله والالتزام بها..

للإجابة على ذلك علينا أن نتعرف على منهج الإسلام في تربية العقل..

---

(١) في ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب المجلد الثالث جـ ٦ ص من ٢٥ إلى ٢٩ بتصرف كبير.. وأيضاً كتاب الإسلام والعقل أو التوحيد الخالص.

تربية العقل

١ ـ منهج الإسلام في تربية العقل

٢ ـ منهج القرآن في تربية العقل

٣ ـ دعوة الإسلام العقل للتأمل في نواميس الكون

١

منهج الإسلام في تربية العقل

يهتم دستور المسلمين الخالد بتربية العقل الإنساني، تربية تتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها ويحوطه بسياج من العناية والرعاية الخاصتين..

يفعل الإسلام ذلك، لأن العقل مناط التكاليف وعليه المعول في فهم الشريعة وتطبيقها، وإذا ما اختل العقل، سقطت التكاليف، عن صاحبه جملة فيفقد الخصائص الإنسانية فهو إلى الأنعام أقرب. ويعمد الإسلام أولاً إلى تفريغ العقل من كل المعتقدات والتصورات التي لا تتفق ومنهجه.

وتصوراته عن الألوهية..

وتصوراته عن طبيعة الكون

ومعتقداته عن الخلق والحياة

تلك المعتقدات والتصورات التي ترددت البشرية فيها ردحاً من الزمن، ولا زالت تتردى والتي لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد الظن والتقليد.

﴿ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾(١).

وقال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٠

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[١]

تصحيح تصوراته عن الألوهية والكون والحياة

ويبدأ الإسلام رحلة طويلة مع العقل الإنساني للكشف عن هذه الانحرافات ويأخذ في نقضها واحدة تلو الأخرى . .

أما بالنسبة للألوهية فيقرر وحدانية الإلّه

﴿ إنما الله إلّه واحد ﴾[٢]

ويقرر تفرده بالملك ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[٣]

وتفرده بالخلق ﴿ هل من خالق غير الله ﴾[٤]

وليس الإلّه اثنين

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلّه واحد ﴾[٥]

وليس الإلّه ثلاثة

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾[٦]

ويسوق الإسلام أدلة كثيرة لإقناع العقل بحقيقة التوحيد . .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[٧]

وليس الإلّه الخالق الرازق المدبر شمسا ولا قمرا .

﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾[٨]

وليس الإلّه المالك المحي المميت صنما ولا حجرا .

---

(١) سورة النجم آية رقم ٢٣
(٢) سورة النساء آية رقم ١٧٦
(٣) سورة آل عمران آية رقم ٢٦
(٤) سورة فاطر آية رقم ٣
(٥) سورة النحل آية رقم ٥١
(٦) سورة المائدة آية رقم ٧٣
(٧) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢
(٨) سورة فصلت آية رقم ٣٧

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾(١)

ويسخر القرآن من الذين يلغون عقولهم، ويستعمل في سبيل إقناعهم طريقة من طرق التربية التي تفرد بها، وإن كانت بعض مناهج التربية الحديثة بدأت الأخذ بها وهي طريقة الحوار.

يقول تعالى:

قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. .

قال: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون. . ؟

قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

قال: ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون. . ؟ أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾(٢)

وتستمر طريقة الحوار بين إبراهيم وقومه وكأنهم يتساءلون. . ومن رب العالمين الذي تدعونا إليه. . ؟ ويأتي جواب إبراهيم رداً على تساؤلاتهم وإيقاظاً للعقل الإنساني للتعرف على ربه

﴿الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين﴾(٣)

وليس الإله فرداً من الأفراد، أو طاغية من الطواغيت، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. .

وعندما قال فرعون لمن حوله:

(يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري)(٤)

(١) سورة الأنعام آية رقم ٧٤

(٢) سورة الشعراء آيات رقم ٧١ - ٧٧

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ - ٨١

(٤) سورة القصص آية ٣٨

عاجله الله بالعقوبة على كفره، حتى نطق لسانه بكلمة الحق، يقول الله تعالى حاكياً عنه:

﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[١]

لهذا كانت كلمه التوحيد ـ أفضل ما قاله الأنبياء والمرسلون ـ تتضمن نفياً وإثباتاً..

إنها تنفي كل الزيف المتراكم في عقول البشر.
وترفض كل هذه الانحرافات
لتثبيت ألوهية الخالق، ووحدانية المالك..

دعوة الإسلام العقل للتعرف على النفس

إذا تعرف العقل على ربه، وآمن به، وخضع لإرادته، ونفذ شرعه دعاه منهج الإسلام ليتعرف على معلومة جديدة، دعاه إلى رحلة متأنية ليتعرف على نفسه ويدرك بعض أسرار ذاته ليزداد إيماناً بخالقه وتقرباً إلى مولاه، يقول الله تعالى:

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[٢]
ويقول أيضاً جل سبحانه:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٣] إنها دعوة من القرآن للعقل البشري لمعرفة أسرار النفس البشرية وماذا عساه أن يعرف..؟ أيتعرف على وظائف الأعضاء وكيف تعمل؟ أيتعرف على القلب ونبضاته..؟ ويتقرب من خلايا المخ... هذا الجهاز العجيب، كيف يدرك..؟

---

(١) سورة يونس آية رقم ٩٠
(٢) سورة: الذرايات رقم ٢١
(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣

كيف يحتفظ بالمعلومات . . ؟ كيف يتذكر . . ؟ إنه صنع الله الذي أتقن كل شيء .

إن العقل البشري يقف مشدوها أمام قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر . .** ﴾(١)

إن العبرة التي تحيط بالإنسان عند تلاوته لهذه الآيات لا تقف عند حد، إنها تملؤه بالخشية والإجلال لخالقة وصانعه، والقادر على إعادته مرة أخرى إعادة تكوينه وخلقه، وإعادة بعثه وحسابه . . أتكون هذه الآية أيضاً دعوة من الله سبحانه وتعالى . . . ليدرك منها علماء المسلمين . . حقائق الجنس ووظائفه . . ؟

والتعرف على علم الأجنة وخفاياه، وأسرار عظمة الخلق فيه . . ؟

هذه الخلية . . كيف تحمل رصيد الجنس البشري وخصائصه . . ؟

وكيف تحتفظ بصفات الأبوين والأجداد، لتطبع بهما طابع الأبناء والأحفاد إنه علم الوراثة . . أحد الدلائل على عظمة الله سبحانه وتعالى في الخلق والإبداع .

كيف أهمله المسلمون، ولماذا تركوا دراسته، والتعرف على أصوله، ومحاولة فهم قواعده . . . لماذا . . ؟ ألأنهم جعلوا كتاب ربهم وراءهم ظهرياً وألهتهم قشور العلم عن حقائقه . . . وشغلهم الزيف البراق الخادع الذي جاءهم من وراء السهوب والبحار . . . عن الجوهر المكنون في أصل كتابهم . . ؟

أتزيد حقائق الخلق والتكوين . . . والتي أفنى كثير من العلماء فيها أعمارهم ولم يأتوا إلا بأقل القليل عما أعلنه الله سبحانه وتعالى في آية واحدة . .

---

(١) سورة الطارق آية من ٥ ـ ٨

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾(١)

خلقاً آخر من صفاته..

وخلقاً آخر في أطواره..

إن هذا الإنسان العجيب الذي خلقه الله في أحسن تقويم - يتباين تبايناً كلياً عن كل الخلائق التي تعمر الكون معه..

يختلف عن الحيوان وغرائزه بالضبط والإرادة..

ويختلف عن الملائكة بإرادته واختياره.

ويختلف عن الجن بكثافته وتناسق أعضائه..

صدق ربي في قوله:

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾(٢)

أتكون هذه الآية وكثير غيرها في كتاب الله سبحانه وتعالى - دعوة للعلماء لدراسة هذا الإنسان، وكشف القناع عن أسرار هذا الجهاز الدقيق..؟ والتعرف على آثار قدرة الله تعالى التي تعمل وتحرك هذه الأعضاء الصغيرة المتناهية في الصغر والدقة داخل جسمه

﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾(٣)

حتى تعتبر قلوب الجاحدين.. وتعود إلى ساحة الإيمان قلوب المنكرين الملحدين.. وتخشع وتخضع قلوب المؤمنين الموحدين..

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(٤)

---

(١) المؤمنون: ١١ - ١٤

(٢) سورة التين آية رقم ٤

(٣) سورة النمل آية رقم ٨٨

(٤) سورة فاطر آية رقم ٢٨

دعوة الإسلام العقل للتعرف على الكون حوله

إذا تعرف العقل البشري على ربه ومولاه، وعرف شيئاً عن حقيقة نفسه وذاته، دعاه منهج الإسلام ليتعرف على الكون حوله.. الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجله... وسخر له ما في السموات والأرض ليقوم بأداء حق الخلافة فيه يتعرف على السماء والأرض، على الشمس والقمر، على البحار والمحيطات على الجبال والسهول، على الحيوانات والنباتات، ليعرف أن كل شيء خلق لحكمة، ولم يخلق لعباً أو عبثاً...

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾(١)

وقدر بمقدار..

﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾(٢)

وخلق من أجل غاية وهدف..

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾(٣)

يقول صاحب كتاب: العلم يدعو إلى الإيمان

«منذ سنوات عديدة، زرع نوع من الصبار في استراليا كسياج وقائي ولكن هذا الزرع مضى في سبيله، حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهل المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة.. ولم يجد الأهالي وسيلة تصده، عن الانتشار، وصارت استراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت، يتقدم في سبيله دون عائق ودون توقف.. وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلّا على ذلك الصبار، ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في استراليا.

---

(١) سورة القمر آية ٤٩

(٢) سورة الرعد آية ٨

(٣) سورة الأنبياء آية ١٦

وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار، ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية تكفي لصد الصبار عن الانتشار. [(١)]

ولقد وقف الإنسان الذي يعتز بقوته وبعلمه عاجزاً أمام ظاهرة من ظواهر خلق الله، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، حتى اهتدى في النهاية إلى آثار حكمة الله في الكون والحياة، وأن لكل شيء سبباً، وأنه خلق لحكمة، وأوجد في هذا الكون بمقدار..

وهذا الذي حدث في استراليا حدث مثيل له في الهند.. لقد كانت الهند ـ كما نعلم ـ مستعمرة بريطانية، وعندما عاد أحد الجنود البريطانيين المرابطين فوق الأراضي الهندية إلى بلده، حمل معه جلد ثعبان من الثعابين الضخمة التي كانت تنتشر فوق الأراضي الهندية، وتملأ الكثير من غاباتها ووديانها...

وأعجب بالجلد الذي حمله الجندي أحد صناع الأحذية فابتاعه بما يساوي ضعف ثمنه، وصنع منه مجموعة من أحذية السيدات... وما لبث أن كثر الطلب على هذا النوع من الأحذية، وانتشر المغامرون الباحثون عن الثروة فوق الأراضي الهندية لصيد هذا النوع من الثعابين وبيع جلده لتجار الأحذية، رغبة في إرضاء أذواق سيدات بريطانيا العظمى.. سيدة البحار في ذلك الوقت..

.. وقل هذا النوع من الثعابين، وأوشك على الانقراض، ولم تكن هذه الظاهرة تلفت نظر المهتمين بشؤون الهند في ذلك الوقت، وخصوصاً أنهم اعتقدوا أن هذه الثعابين من الأشياء الضارة التي يجب القضاء عليها.. وإنما الذي حدث أن الهند أصيبت بكارثة أوشكت أن تدمر أهم غلاتها الزراعية ألا وهو محصول القمح. لقد فوجىء أصحاب حقول القمح بجيوش من الجرذان تخرج متكاثرة

---

(١) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان

من باطن الأرض لتلتهم كل ما يقع أمامها من سنابل القمح الغضة. . وفشلت كل الجهود في القضاء على هذا الحيوان الجديد الذي يتكاثر بشكل مخيف. .

وتساءل المهتمون بشؤون الزراعة عن السبب في تكاثر الجرذان المفاجىء وجاء الجواب من خبراء مكافحة الآفات. . .

السبب في تكاثر جيوش الجرذان نقص الثعابين التي كانت تتغذى على هذه الحيوانات، وكأنها وقاية إلهية، لحماية محصول القمح وثمار الأشجار من هذه الحيوانات الشرسة، والتي لم تخلق إلّا لغاية.

أيضاً قد تغيب عن عقولنا في فترة من الزمن، ولكن لا بد من تكشفها لجيل من الأجيال. .

وبعض السم ترياق لبعض وقد يشفى العضال من العضال

ومن وسائل تربية العقل في منهج الإسلام. . أن يدعوه للتعرف على الجبال إحدى روائع الله في الأرض.

دعوة من المنهج ليتعرف العقل على خصائص الجبال ووظائفها في هذا الكون الكبير.

والجبال أحد المعالم الأساسية لقدرة الله سبحانه وتعالى على ظهر الأرض وإذا كانت البشرية في تاريخها الطويل لم تكتشف من أسرار وظيفة الجبال إلا القليل، فلعل الله سبحانه وتعالى يهدي الأجيال المقبلة إلى ما تحويه الحصون الشم، والقلاع الكبيرة التي تنتشر على أركان الأرض من منافع وكنوز وقد ورد ذكر الجبال في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

ونحاول بمشيئة الله أن نتعرض للبعض منها بالتفسير والإبانة، وعلى الله قصد السبيل.

الأول: هي جبال خاصة ترفع لبني إسرائيل كأنها ظلة عليهم، وتصبح مكاناً

لتلقى الأمر والشريعة، وأخذ الميثاق عليهم. قال تعالى:

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون.﴾(١)

إنه ميثاق لا ينسى فقد أخذ عليهم في ظروف لا تنسى، وهي نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وأعطوه في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس، ولكن إسرائيل هي إسرائيل. نقضت الميثاق ونسيت الله سبحانه وتعالى ولجت في المعصية.

الثاني: هي بيوت آمنة، وحصون شامخة لقوم مخصوصين، هم قوم صالح عليه السلام قال تعالى:

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾(٢)

هذه الواقعة توقظ القلب البشري ليتفكر ويتدبر، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في قلب الصخر.

ولكن إذا جاء أمر الله وجدت كل شيء ذاهباً، وكل وقاية ضائعة، وكل حصن هين ضعيف، ولا مفر عند ذلك إلا بالالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

الثالث: هي بيوت للنحل الذي أوحى الله تعالى إليه، النحل الذي يتغذى من خلاصة ما تنبت الأرض من زهور وورود، ليحوله الجهاز الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في داخله إلى عسل مصفى.

إلى شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

قال تعالى: **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً**

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٧١

(٢) سورة الحجر آية رقم ٨٢

يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)[١].

الرابع: هو مكان مقدس طاهر.

وبقعة طيبة هيئت ليتجلى الله سبحانه وتعالى عليها.

ليس هذا فحسب. ولكن ليتكلم مع موسى عليه السلام.

ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قال تعالى:

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه، قال رب أرني أنظر إليك قال: لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربُّه للجبل جعله دكّا، وخر موسى صقعاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾[٢].

إنها الوهلة التي لا تتكرر في عمر الإنسان، وموسى يتلقى كلمات ربه، فيتحول إلى شيء آخر، مبتوت الصلة بالإنسان الأول، ويطلب ما لا يكون لبشر مثله في هذه الأرض، وما لا يطيعه بشر على ظهر هذه الأرض.

إنه يطلب رؤية الله سبحانه وتعالى.

يطلب ويلح في الطلب، حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الحازمة.

«قال لن تراني».

ثم يترفق به الرب العظيم فيعلمه لماذا لن يراه.. إنه لا يطيق قال تعالى:

﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾

والجبل أمكن وأثبت.

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾.

ساخت قوائمه، واندكت أركانه، فبدا مسوًى بالأرض مدكوكاً، وأدركت

---

(١) سورة النحل آية رقم ٦٨ - ٦٩

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣

موسى رهبة الموقف، وسرت في كيانه البشري الضعيف.

«وخر موسى صعقاً»

مغشياً عليه، غائباً عن وعيه وعن الكون حوله.

«فلما أفاق»

وتاب إلى نفسه وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله

«قال سبحانك»

تنزهت وتعاليت عن أن ترى الأبصار وتدرك[١].

«تبت إليك»

عن تجاوزي للمدى في سؤالك

«وأنا أول المؤمنين»

الخامس: هن كن للراحة والهدوء وحماية للمقيمين فيها من صرير البرد ووقدة الحر. قال تعالى:

﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾[٢].

والكن مكان للسكينة النفسية، والاطمئنان الشعوري، وهذا غاية ما يتطلبه المسلم في بيته.

وقد حرص الإسلام على أن يضمن للبيت حرمته، ويضمن له أمنه وسلامته فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها»[٣].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب المجلد جـ ٣ ص ٦٧ - ٦٨

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١

(٣) سورة النور آية رقم ٢٧

فلن يقتحمه أحد بغير حق، ولن يطلع على من فيه لأي سبب من الأسباب ولن يتجسس على أهله في غفلة منهم، أو غيبة فيروع أمنهم، ويخل بطبيعة السكينه والاطمئنان اللذين أرادهما الإسلام للبيوت.

السادس: هي جبال تسبح لخالقها آناء الليل وأطراف النهار، شاكرة لأنعم الله عليها، عارفة بقدرته تعالى على الخلق والخلائق.

قال تعالى:

﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق»[1]

وقد يقف بعض الناس مدهوشين أمام هذا النبأ. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى بالإشراق..؟

تسبح الجبال. عندما يخلو داود إلى ربه. ويرتل الآيات في تمجيده وذكره، ليس هذا فحسب، ولكن الطير أيضاً يتجمع على هذا الترتيل لتسمع له وترجع آيته ونتساءل علام الدهشة..؟ ولم العجب..؟

والأمر يتعلق بقدرة الله سبحانه وتعالى..؟

الله سبحانه وتعالى: هو الذي أمرها بالتسبيح، وأذن لها بالنطق.. والله سبحانه هو الذي خلقها وسواها.

إن الأمر في التسبيح والتمجيد لخالق الكون لا يتعلق بالجبال فقط، ولا بنوع من المخلوقين فحسب. ولكنه يشمل هذا الكون الكبير، ما عرف منه وما لم يعرف قال تعالى:

﴿تسبح له السموات السبعُ والأرض ومن فيهن وان من شيء إلاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[2].

السابع: هي أوتاد على ظهر الأرض يدركها الإنسان البصير لأول وهلة قال

---

(١) سورة ص آية رقم ١٨.

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٤٤

تعالى: ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً** ﴾[١] فهي أشبه بأوتاد الخيمة التي تشد إليها، أما حقيقتها فكما عبر القرآن الكريم بأنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها.

وقد يكون هذا لأنها تعادل بين التقلصات في البحار، ونسب المرتفعات في الجبال، وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض. والتقلصات السطحية.

وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية.

وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد قال تعالى:

﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[٢]

الثامن: هي معاقد للثلوج في أعاليها، ومراشح للحياة في أواسطها، ومخازن لقطرات الطل في أكنانها ومغاورها قال تعالى:

﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً** ﴾[٣]

وهي أيضاً منافذ للينابيع ومد الأنهار بما تختزنه من الأمطار قال تعالى:

﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً** ﴾[٤].

ومن المطابقات العجيبة أنه إذا ذكرت الجبال في كتاب الله ذكر معها الماء والأمطار والأنهار. قال تعالى:

﴿ **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾[٥]

---

(١) سورة النبأ آية رقم ٦ ـ ٧
(٢) سورة النحل آية رقم ٨
(٣) سورة النحل آية رقم ٨١
(٤) سورة النحل آية رقم ١٥
(٥) سورة النور آية رقم ٤٣

ولا يكتفي منهج القرآن عند تربيته للعقل بذلك بل يدعوه في جولة جديدة ليتعرف على خلق جديد من خلق الله.

فما هذا الخلق الجديد..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في المنهج.

٢

منهج القرآن في تربية العقل

قلنا في كلامنا السابق: إن منهج القرآن في تربية العقل له طرق متعددة وعددنا بعضاً من هذه الطرق:

منها أنه يلجأ إلى تفريغه من كل المعتقدات والتصورات الباطلة التي لا تتفق مع منهجه، تصوراته السابقة عن الألوهية وتعددها وتصوراته عن طبيعة الكون، ومعتقداته عن الخلق والحياة.

ليقيم مكان ذلك كله الإيمان الخالص بالواحدالأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

ثم يطالبه بالتعرف على نفسه ليدرك بعض أسرار عظمة الله في خلقه وأخيراً يدعوه للتأمل والنظر والسياحة في هذا الكون الكبير ـ الذي سخره الله له، حتى يتمكن من القيام بدور الخلافة فيه.

فمثلاً هذا السطح الممتد من الماء والذي يقدره علماء الجولوجيا بثلثي الكرة الأرضية.

من أين أتى..؟ وكيف تكونت المحيطات..؟ وكيف قامت الأنهار..؟ ومن الذي يقوم بعملية التبخر داخل المحيطات..؟ وكيف تتم عملية المطر الدورية التي

هي قوام الحياة على وجه الأرض قال تعالى: ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾(١)

ويقول الله سبحانه وتعالى رداً على كل هذه التساؤلات التي تنبعث من داخل النفس البشرية.

﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾(٢)

الماء الذي هو أصل الحياة وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله سبحانه وتعالى، ما دور الإنسان فيه..؟ دوره أنه يشربه أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه، فهو الله سبحانه وتعالى وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان، ولو شاء أن يجعله أجاجاً لكان، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أودع الملح هنا، وصفاه منه هناك، قال تعالى ﴿ **وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجرا محجورا** ﴾(٣)

إن هذين البحرين الفرات العذب، والملح المر، يجريان ويلتقيان فلا يختلطان ولا يمتزجان، إنما يكون بينهما برزخ وحاجز من طبيعتهما التي فطرها الله. فمجاري الأنهار غالباً أعلى من سطح البحر، ومن ثم فالنهر العذب هو الذي يصب في البحر المالح، ولا يقع العكس إلا شذوذاً وبهذا التقدير الدقيق لا يطغى وهو أضخم وأغزر على النهر الذي منه الحياة للناس والأنعام والنبات، ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد، إنما يتم بإرادة الخالق الذي أنشأ هذا الكون لغاية تحققها نواميسه في دقة وإحكام.

والأفراد والجماعات الذين يقطنون بجوار البحار والمحيطات أو تضطرهم ظروف حياتهم إلى البقاء فترة يقومون بعملية ترشيح الماء وتكثيفه لاستبعاد الملح منه

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٣٠

(٢) سورة الواقعة آية رقم ٦٨

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٥٣

ليكون بذلك صالحاً للشرب، ولطالما تمنوا أن لو كانت هذه المياه خالية مما بها من الأملاح إذن لصلحت حياتهم وطابت إقامتهم.

يقول العلماء: إن هذه الأمنية التي يريدها بعض الناس لو تحققت وصارت مياه البحار والمحيطات عذبة لتحولت إلى عفونة منتشرة تلف الكرة الأرضية ولانتهت الحياة من على سطحها تماماً.

ونتساءل لماذا..؟ ويأتي الجواب، لأن مياه المحيطات والبحار واقفة مغلقة والملح فيها مادة حافظة تمنع عنها التعفن والفساد، إننا نرسل من على الأرض ما يكون من برك ومستنقعات لأنها مليئة بالأوبئة وتتوالد فيها الجراثيم.

إنها خطر على الأفراد ولذلك تنهض الحكومات والجماعات لردم البرك والقضاء على ما فيها من جراثيم. إنها خطر وهي صغيرة محدودة.

فماذا يكون حال البشرية إذا تحول أكثر من ثلاثة أرباع الأرض ـ وهو مساحة المحيطات إلى برك ومستنقعات..؟

إن مياه المحيطات خلقت بإحكام وقدر

فهي دائمًا تتبخر وتتصاعد بخاراً إلى الطبقات العليا من الجو، ثم تتكاثف لتسقط مياهاً حلوة تجري في الأنهار وتسقي الزرع والضرع، وتمد الكون كله بكل ما فيه بالحياة والنماء قال تعالى:

﴿ حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[1].

وإذا كانت الأمطار مستودعاً للأنهار فأين مستودع المحيطات..؟

إنها عند خالق المحيطات، يقول الله تعالى: **﴿ وإن من شيء إلا عندنا**

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٤

خزائنه وما تنزله إلا بقدر معلوم﴾[١]

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى: في أن الأنهار قابلة للجفاف ولا تجف المحيطات.

وإذا كانت البحار والمحيطات ومن قبلها الجبال عجيبة من عجائب خلق الله تعالى أليست الإبل كذلك..؟

يقول الله تعالى: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾**[٢].

يقول بعض العلماء: إن الإبل زودت بشبكة من الأهداب الطويلة، مخالفة بذلك بقية الحيوانات لأنها تحمي عيونها من ذرات الرمال إذا هبت عاصفة أثناء سيرها في الصحراء، وبذلك لا تضطر إلى إقفال عيونها كما يفعل الإنسان والحيوانات الأخرى.

ويقول عالم آخر:

يستطيع الإنسان والحيوان أن يشرب كل منهما كمية مقدرة من الماء، ولكن إذا زاد هذا القدر عن الطاقة المحددة انفجرت كرات الدم الحمراء داخل جسمه وعرضته لخطر محقق.

ولكن الإبل هي الحيوان الوحيد التي تستطيع أن تشرب كميات هائلة من الماء وتختزنها داخل جسمها لفترة طويلة.

بل هناك ما هو أعجب من ذلك فجنس الإبل هي القادرة على أن تشرب كمية من الماء المالح دون أن يصيبها ضرر، ويقرر العلماء أن لها من الأجهزة داخل جسمها التي زودها الله بها، ما يساعدها على تحليل الماء وترشيحه ليتحول إلى ماء عذب.

---

(١) الحجر آية ٢١

(٢) الغاشية آية ١٧ ـ ٢٠

ونتساءل من الذي خص الجمل دون بقية الحيوانات بالقدرة الفائقة على تحمل العطش..؟

لماذا تنفجر كرات الدم الحمراء في بقية الحيوانات ولا تنفجر في الجمل..؟ من فعل ذلك..؟ إنه الله القادر الخالق وصدق ربي في قوله: ﴿ **هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين** ﴾[1] نقول إن ما ذكرناه في هذا الحديث هو ما كشف عنه العلم القاصر المحدود، وما لم يكشف عنه فهو كثير وكثير. ومن هنا كانت حكمة الله تعالى في قوله:

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾.

إذا كان هذا منهج القرآن الكريم في تربية العقل فإنه لا يكتفي بذلك، ولكنه يدعوه في رحلة أخرى للتأمل في نواميس الكون والحياة.

---

(١) سورة لقمان آية رقم ١١

٣

دعوة الإسلام العقل للتأمل في نواميس الكون والحياة

يطالب منهج التربية الإسلامي العقل.. رصد ظواهر الكون والحياة في الطبيعة في انهيار الأمم، في تأله الأفراد، في طغيان الحكام، ويدعوه إلى التأمل وعدم استعجال النتائج فهي لا بد آتية حسب السنن الماضية التي لا تتبدل.

ويعلمه أن أعمار الأفراد ليست هي المقياس، والجولة العارضة ليست هي الجولة الأخيرة...

قد ينتصر الباطل فترة من الوقت ويزدهر، ويتمكن ويعلو في الأرض، ولكن هذا ليس نهاية القول، ولا نهاية المطاف..

إنه جزء من سنة الله المتشعبة الجوانب[١]

قد يكون لأن الناس ضعفوا واستكانوا ولم يطلبوا التغيير..

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[٢]

وقد يكون لأنهم استطابوا الظلم.

﴿ **كيفما تكونوا يول عليكم** ﴾[٣]

---

(١) منهج التربية في الإسلام/للأستاذ محمد قطب

(٢) سورة الرعد آية رقم ١١

(٣) رواه الحاكم.

قد يكون ذلك فتنة للذين ظلموا أنفسهم بالخضوع للطغيان، وبإسرافهم عليها بالموبقات، أو بظلمهم الرعية. . .

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ (١)

وقد يكون ذلك لحكمة يريد الله بها آن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمكن واستعداد.

يقول الله تعالى:

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ (٢)

هذه لمحة خاطفة عن منهج الإسلام في تربية العقل، وللإسلام منهجه الكامل في تربية الروح والجسد، وعندما تعرف المسلمون على هذا المنهج وطبقوه على حياتهم. . صغرت في عينهم رقعة الأرض الفسيحة، فانداحوا في أربعة أركان الأرض، فمدنوا الدنيا، وهذبوا العالم، وقرروا الحق للإنسان. . .

وإذا كان ذلك كذلك فما منهج الإسلام في تربية الجسد. . ؟ للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في المنهج.

---

(١) سورة النحل آية رقم ٢٥

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩

تربية الجسم

١ ـ منهج القرآن في تربية الجسم
٢ ـ منهج القرآن في حماية الجسم
٣ ـ الصلاة وتربية الجسم

١

منهج القرآن في تربية الجسم

يهتم القرآن الكريم بجسم الإنسان.. الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض، الإنسان الذي كرمه ربه وفضله. قال تعالى:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾

ويحوطه بسياج من العناية والرعاية بغية الحفاظ عليه، ومن أجل ذلك اشتمل على المناهج التي تتفق مع فطرته، والوسائل المشروعة التي تساعد على تقويته وتدريبه حتى يتمكن من القيام برسالته، تلك الرسالة التي أناطه الله بها من القيام بتعمير الكون، وأداء الفرائض والتكاليف، والدفاع عن شريعة الله. والقارىء لكتاب الله تعالى يرى أن منهج القرآن عمل على إيجاد التوازن والتعادل في داخل الفرد.

التوازن بين الدوافع والضوابط، والتعادل بين متطلباته المادية، وأشواقه الروحية، فلا يهمل إحداها في سبيل الاهتمام بالأخرى.

ومنهج القرآن بهذا التصور يختلف عن المذاهب الهندوكية والبوذية، وما نحا نحوهما من الديانات والفلسفات والعقائد الأخرى. التي تعمل على كبت الجسد

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٧٠

لتعلي من شأن الروح، فوصلت بهذا إلى السلبية المريضة، في التفكير والتدبر وإلى الهزال والضعف في الجسد وقوة المقاومة.

ويختلف منهج القرآن أيضاً عن المادية العلمية، والشيوعية الإلحادية، التي عملت على كبت الروح لتعلى من الإنتاج المادي، وتغرق أصحابها في المتاع الجسدي، فوصلت بذلك إلى الحيوانية البغيضة، في كل مناحي الحياة، تلك الحياة التي لا تليق بالآدمى خليفة الله في الأرض.

يقول أحد المفكرين: إن الإسلام يختلف في تصوره للكون عن النظرة المادية التي تقول: إن مملكتي ليست إلا هذا العالم المحدود.

ويختلف عن النظرة المسيحية التي كانت تقول: ليس هذا العالم مملكتي. أما الإسلام فنظرته تتمثل في قول الله تعالى:

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[1].

ومن منهج القرآن في تربية الجسد، أنه يحدد له أنواع الأطعمة التي يأكلها ويشترط فيها أن تكون حلالاً طيباً، قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾[2]

وقال أيضاً: **﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله﴾** [3]

فلا بد أن يكون ما يتناوله الإنسان من طعام تتمثل فيه هذه المواصفات التي حددتها الآيات حتى يستفيد منه الجسم وتستريح له النفس.

فإن كان حلالاً غير طيب، فهو فاسد متعفن، أو فج غير ناضج، وهو بهذه الحالة يضر الجسم، ويتلف ما بداخله من أجهزة، ويصيب صاحبه بالأمراض والأوبئة، التي تحول بينه وبين أداء ما يكلف به من أعمال أو يقوم به من أعباء.

---

(١) سورة القصص آية رقم ٧٧

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٨

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٦٩

وإن كان طيباً فقط، وليس حلالاً اكتسبه صاحبه بطرق غير مشروعة من غصب، أو نهب، أو سرقة. أمرض القلب، وغشى على البصيرة، وباعد بينه وبين مرضاة ربه. فتنجس أعضاؤه، وتختل موازينه، وتكتنفه الشياطين. فيصبح لهم ولياً وصاحباً.

قال تعالى: ﴿ **ومن يتخذ الشيطانَ ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾[1].

وحتى ما يغنم من المعارك، وما يأخذه المقاتل منها. لا بد أن يتحقق فيه شرط الحلال وأن يكون طيباً.

وإلا فلا يحل للمسلم أكله أو حيازته. ومن ذلك ما يتركه الأعداء من مأكولات محرمة أو مشروبات كالخمور ولحوم الخنازير.

فإن كانت لهذه الأشياء قيمة في ميزان الأعداء فهي في ميزان المسلم رجس من عمل الشيطان.

وكذلك لا يعتبر طيباً ما يتركه الأعداء من لحوم وأطعمة لم يذكر عليها اسم الله تعالى عند ذبحها. قال تعالى:

﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾[2].

والطعام من قبل ذلك ومن بعده، هو وسيلة وليس غاية، وسيلة تتولد منه الطاقة الدافعة التي تساعد الإنسان على تعمير الكون وتجميل الحياة.

والطاقة القوية للدفاع عن النفس والزود عن حمى البلاد.

والطاقة الجنسية: التي تساهم في حفظ النوع واستمرار تكاثر الجنس البشري بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة النساء آية رقم ١١٩ - ١٢٠

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢١

وإذا كان منهج القرآن يبيح للإنسان ما كان حلالاً طيباً من الأطعمة، فإنه يحرم عليه أنواعاً أخرى، لأنها تضعف الجسم، وتخل بتراكيب هذا الجهاز العجيب قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾(١).

لقد حرم الله الميتة، والميتة تأباها النفس السليمة، ويرفضها الطبع السوى وكذلك الدم. . وبعد فترة طويلة من تحريم القرآن للميتة والدم. يأتي الطب الحديث ليقرر بأنهما مجمع الميكروبات والمواد الضارة.

ونستبعد أن يكون الطب الحديث قد استقصى كل ما في الميتة والدم من أذى أو أنه وضع يديه على علة التحريم الكاملة. . فلا زالت أمامه المسافة شاسعة بين ما اكتشفه اليوم. وبين ما لا يزال غامضاً يقف أمامه علم الإنسان القاصر المحدود عاجزاً مقهوراً.

فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم، والخنزير بذاته وشكله منفر للطبع النظيف القويم. ولقد نزل القرآن بتحريمه منذ ذلك الأمد الطويل، ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة.

دودة تخرب أجهزة الجسم، وتمتص عنصر الرجولة منه، وتفقد الإنسان عنصر الحياء والخجل: فلا يبالي أن يهتك عرضه، أو تتبذل حرماته، ثم يتحول في النهاية إلى خيوان آدمي صاحب ظفر وناب يحن إلى حياة الغابة ولن يخجل من تعرية أعضائه التناسلية.

ويقول الآن قوم إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٢ - ١٧٣

وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية. .

يقولون ذلك. . ويشيعونه ويروجونه ـ بلا خجل أو حياء ونسي هؤلاء أن علمهم هذا قد احتاج إلى قرون طويلة، ليكشف آفة واحدة.

والعلم كما يقولون هم: علمهم القاصر المحدود. . لا يعرف الكلمة الأخيرة في مثل هذه الأمور.

فمن الذي يجعلنا نطمئن بأنه ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف النقاب عنها بعد.

ونتساءل: ألا يستحق هذا الكتاب الذي قال الله فيه: **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة**»[١]

الكتاب الذي سبق العلم البشري بعشرات القرون ـ أن نثق به وندع كلمة الفصل له، ونحرم ما حرم، ونحلل ما حلل؟ نرجو من الله ذلك.

---

(١) سورة النحل آية رقم ٨٩

٢

منهج القرآن في حماية الجسم

قلنا إن القرآن الكريم يحرم على المسلم بعض الطعام والشراب ليحول بينه وبين فساد جسمه، وتلف أعضائه، من جراء تناوله لهذه المحرمات.. وعلة التحريم في الحقيقة قد لا تنكشف للعقل البشري في كثير من الأحيان، وعلى العقل أمام هذا أن يلتزم ويطيع، لأن العقل لم يأت ليتولى الحكم في قضاياه، وإنما جاء الوحي ليوجه العقل إلى شرع الله، ويبصره بالطريق المستقيم، ويقوده إلى ما يصلحه في الدنيا والأخرة قال تعالى: ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[1].

ويقدم منهج القرآن وصاياه وتوجيهاته ويطالب المسلم الالتزام بها حتى يحتفظ جسمه بقوته، ويكون بمنأى عن إصابته بالأمراض والأوبئة. من ذلك أنه يحول بين الفرد وزوجه في أيام محدودة. في أيام الحيض والنفاس قال تعالى:

﴿ **فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾[2]

إن القرآن يطالب المسلم أن يعتزل زوجته لفترة محدوده هي مدة الحيض ولا يسمح له أن يباشرها في تلك الفترة، لأن الحيض أذى، أذى يضر بجسمه ويضر

(١) سورة الإسراء رقم ٨٥

(٢) سورة البقرة أية رقم ٢٢٢

بصحته، وينهك قواه، والمرأة أيضاً تكون في تلك الفترة مضطربة الأعصاب خائرة القوى، تشكو الأوجاع والاضطرابات النفسية والعصبية، فمباشرة الرجل لها في فترة الحيض هو إرهاق للجانبين ولا يحقق الهدف الأسمى من المباشرة وهو إنبات الحياة وإيجاد النسل.

ويحول بينه وبين الرهبنة. والرهبنة التي تدعو إلى الانعزالية في الحياة فإذا فعل ذلك تمزقت إرادته من جراء الصراع بين داخله وخارجه قال تعالى: ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** ﴾(١)

إن هذا الإنسان زوده الله بطاقات محددة، تعمل كل منها في حياته في فترات معينة، وأوقات معلومة، فإذا لم تقم بواجبها. . تكاسلت وضمرت وتحولت من نعمة إلى نقمة. تقلق صاحبها وتفسد حياته.

ويعمل القرآن الكريم على تربية عينيه وبصره، ويعوده النظر إلى الحلال الطيب، ويطالبه بالعفة، وأن يصون جسمه وجوارحه من النظرة الحرام، أو اللمسة الحرام، أو أن يتعدى حدود الله قال تعالى:

﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾(٢).

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين. فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفىء ولا يرتوي. وفي النهاية إما الإفضاء

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٧
(٢) سورة النور آية رقم ٣٠

الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، وهي تكاد تكون عملياتٍ متتابعة من التعذيب.

وإذا ربي القرآن الكريم نظر المسلم، عمل على تربية سمعه، فلا يسمع إلا الطيب من القول، ويحول بينه وبين الاستماع إلى هجر الكلام ولغوه قال تعالى:

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾(١).

إنهم لا يؤدون شهادة زور، لما في ذلك من تضييع الحقوق والإعانة على الظلم، وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه. ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس. وهم كذلك يصونون أنفسهم وأسماعهم عن اللغو والهزر، ولا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوثونها بسماعه، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته والمشاركة فيه.

والمؤمن لديه ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل.

ويدعوه إلى التزين والتطيب، لتشرق نفسه، وتظهر آثار نعمة الله عليه قال تعالى:

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(٢)
وقال أيضاً: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾(٣).

إنها الزينة التي تستر العورات المكشوفة، بدل قبح العرى وشناعته وإذا كان اللباس يستر عورات الجسم ويزينه، فإن التقوى تستر عورات القلب، وتزينه أيضاً.

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٧٣
(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣٢
(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣١

وعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو غيره إلى العري.

إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة مسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون.

إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق قال تعالى:

﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر. . وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾(١).

فإذا أصبح الجسم في وقاية من تقلبات الكون، وعوامل الطبيعة، ولديه الحصانة من الوحوش المفترسة، والحيوانات الضارية التي تعيش في الكون معه، وأصبح قوياً قادراً على منازلة خصوم العقيدة المفسدين في الأرض وأعد لهم العدة والعدد.

طالبه منهج القرآن بالمحافظة عليه، فلا يرهقه بالصوم الكثير أو الجوع المتتابع لئلا يضعف ويترهل وإنما هو:

﴿ أياماً معدودات ﴾(٢)

ومن شروط أداء هذه العبادة أن يكون الجسم صحيحاً وصاحبه مقيماً فإن كان غير ذلك:

﴿ فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(٣)

ومدرسة الصوم في منهج القرآن إجازة إجبارية للأجهزة الداخلية لجسم الإنسان، دعوة تهذيبية لأعضائه الخارجية. لتكف عن الفحش في العمل، والهجر

(١) سورة النحل آية ٨١
(٢) سورة البقرة آية ١٨٤
(٣) سورة البقرة آية ١٨٥

في القول. . وتسمو بذلك إلى الخلق النبيل. . الذي يدعو إليه الكتاب الكريم في قوله تعالى:

﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[1]

ولا يكتفي منهج القرآن بما ذكرنا في تربية الجسد، ولكنه يحاول أن يرسم له الطريق السليم والمنهج القويم.

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٥

٣

الصلاة وتربية الجسم

إذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربه ورابطة تربط الأرض بالسماء ومعراج المؤمنين إلى ربهم، والمطية السريعة التي تنقلنا إلى رحاب الله تعالى: فإنها أيضاً عامل من عوامل تربية جسم المؤمن..

إن المسلم لا يدخل الصلاة إلا وهو طاهر الظاهر والباطن. قال تعالى: ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾(١)

يحبون أن يتطهروا من النجاسات والجنابات بالماء، ويحبون أن يتطهروا من الفحش والفواحش بذكر الله.

والطهارة التي تتطلبها إقامة الصلاة، ليست هي الطهارة التي تقف عند إزالة الأوساخ والأتربة الظاهرة.

إنها طهارة من نوع جديد.

طهارةتسلح المؤمن بسلاح الوقاية

طهارة تربطه بالسماء بأسباب غير منظورة

طهارة تحول بينه وبين همزات الشياطين: «وأعوذ بك ربي أن يحضرون»(٢).

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٩٨

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«قدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة ـ وأنا ابن ثماني سنوات.

فقال لي:

«يا بني إن استطعت ألا تزال على الطهارة فافعل، فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطي الشهادة».

إن العبد المسلم لا يقدم على الوضوء إلا باسم الله، ولا يسكب الماء على جوارحه إلا بعد ذكره لخالقه. خالق الأرض والسموات.

فالطهارة يجب أن تكون باسم الله.

واذا فعل المسلم ذلك تخلص من الأوساخ المادية، وتخلص من القاذورات المعنوية.

إنك تغسل يديك في الوضوء فتطهرهما مما تأتيه أو تفعله. من مخالفة أمر الله تعالى.

من اعتدائهما على الغير.

من تناولهما المال الحرام

من أن تبطش بهما من لا يستحق البطش.

من أن تكتب بهما معصية.

من استعمالهما في غير مرضاة الله.

يقول الرسول ـ ﷺ، فيما يرويه الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه:

إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء.

فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء.

فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب[1].

إن المسلم يغسل عينيه في الوضوء باسم الله. لا باسم المدنية الزائفة ولا باسم هيئة من الهيئات الصحية.

ولا باسم مصلحة ذاتية.

ولكنه فقط باسم الله.

وهنا تتطهر عيناه مما تكون قد أصابتهما من نظرة محرمة أو عورة مكشوفة أو هتك ستر الآخرين.

ويمضمض المسلم فمه فينظفه من بقايا الطعام، ومن فتات الخبز، ويطهره من لغو الحديث ومن فلتات اللسان.

يطهره من الوعود التي لا تتحقق حتى من الصدق، الذي يجب ألا يقال، يقول الله تعالى:

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾[2]

فما بالك بالكذب الصراح..؟

وخداع الكلمة وبريق الوعد، وخداع الألسنة..؟

إن المسلم عندما يغسل يديه ووجهه، ويمسح أذنيه ورأسه، ويمضمض فمه، وينشق الماء في أنفه. تتجافى عنه ذنوبه، كما تتجافى أوراق الشجر في أيام الخريف.

عن عبد الله الصنابحى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

« إذا توضأ العبد فمضمض فمه خرجت الخطايا من فيه.

فإذا استنثر، خرجت الخطايا من أنفه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة: باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء رقم ١١

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٨

فإذا غسل وجهه، خرجت الخطايا من وجهه، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه

فإذا غسل يده، خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه.

فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه.

فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه

ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة.

فإذا تم الوضوء للمسلمين، فهم أصحاب الأيدي المتوضئة، يتأدبون بأدب القرآن، ويتمذهبون بمذهب النبوة، فلا يعرفون لغو الحديث. قال تعالى:

﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾[1]

ولا يعيرون الجاهلين قولاً قال تعالى:

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[2]

ولا يمشون مشية الخيلاء قال تعالى:

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾[3]

أصحاب الأيادي المتوضئة. لا يخرقون الأرض بأقدامهم. ولا يتطاولون بأعناقهم إلى عنان السماء.

إنهم يسهرون الليل مع ربهم.

يحققون عبوديتهم له، ويدعونه خوفاً وطمعًا، فهم في صحوة دائمة، وفي يقظة مستمرة، يقول الله تعالى:

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾[4].

أصحاب الأيادي المتوضئة لهم علامات لا يخطئها البصر الحصيف، وإشارات تدل عليهم وترمز إلى حقيقتهم.

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٧٢

(٢،٣) سورة الفرقان آية رقم ٦٣

(٤) الفرقان آية ٦٥

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال:

قال رسول الله ـ ﷺ:

«أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يرفع رأسه فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يمين مثل ذلك.

فقال رجل: كيف تعرف أمتك يا رسول الله من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك..؟

قال: هم غرٌ محجلون من أثر الوضوء»[1]

في وجوههم غرة من نور ينبعث من الجباه التي عفرت بالسجود إلى الله تعالى.

والتحجيل نور ينبعث من الأقدام التي اعتادت السير في الظلام إلى بيوت الله إنها جباه حققت السجود لله والخضوع لأمره والتسليم لحكمه.

وأقدام لم تمل السير سعياً إلى بيوت الله.

ولكن لماذا الماء..؟ والماء بالذات.

إن الإنسان في رحلة الحياة قد تحيط به الظلمات، وتكتنفه الشياطين، ويران على قلبه، فتموت منه الأطراف موتاً معنوياً.

فإذا حدث هذا وكثيراً ما يحدث عند بعض الأفراد.

عندها تفقد الإحساس بالمسؤولية فلا تبالي بما تأتى وما تدع، ويخفت صوت الوازع الديني. وتغفل أجهزة المراقبة.

فإذا قام الفرد إلى الوضوء، وسكب على أعضائه قطرات الماء.. ونطق لسانه بذكر الله حييت هذه الأعضاء من جديد، ونشطت واستيقظت، وعادت لها حيويتها بذكر الله قال تعالى:

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[2]

---

(١) رواه البخاري في الوضوء ٣ ومسلم في الطهارة ٣٤، ٣٦، والترمذي في الجمعة ٧٤ والنسائي في الطهارة، وابن ماجة في الطهارة ٦، والزهد ٣٤.

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٣

وعلى هذا فالوضوء نظافة وطهارة، وقربة ودعاء، وتضرع ورجاء. ثم تأتي الصلاة، والصلاة فوق أنها عبادة روحية، وصلة بين العبد وربه. فهي تدريب لعضلات جسمه بالحركة.

وعامل لإذابة شحمه وورمه بالركوع والسجود والقيام والقعود. ومصفاة يومية تساعد على تسرب أملاحه وترسباته.

وهي أداة للنظام ولكن لا يسد مسدها كل ما اخترعته البشرية من وسائل النظام

وهي وسيلة الاتصال بين العبد وربه ـ ولكن لا يقوم مقامها أي شكل من الأشكال الأخرى.. أو أي طريقة من الطرق.. التي نادى بها العقل البشري في القديم والحديث سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة.. تتفق مع ما جاء من عند الله أو تختلف عنه. إنها الصلاة التي قال الله عنها

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾(١)

نقول ذلك: لأن بعضهم قال إذا كانت الصلاة رياضة فلا حاجة لنا بها لأن الحركات الرياضية والتدريبات الرياضية كفيلة أن تسد مسد الصلاة بعد أن أصبحت واجباً من الواجبات وفناً من الفنون.

وإذا كانت الصلاة تعودنا النظام وتطبعنا عليه ـ عندنا الآن الجندية وهي مجال النظام الأكبر وفيها غنى.

وإذا كانت الصلاة اتصال العبد بربه فلا حاجة لتحتيم شكل هذه الصلاة فالاتصال بالله يمكن أن يتم في خلوة ونجوة بعيداً عن حركات الجوارح التي تعطل الاستشراف الروحي.

ولهؤلاء وأمثالهم نسوق رأي الغزالي في قوم أرادوا أن يتركوا التكاليف

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٣

الشرعية من صلاة وصيام بحجة أنهم وصلوا إلى درجة ليسوا معها في حاجة إلى إقامة التكاليف.

يقول الغزالي:

«ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل، ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى.

وقال له: لا تخل هذا القصر من هذا الحشيش طول عمرك. وإياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه.

ومات الرجل.

وقام الولد بشؤون هذا القصر فزرع فيه أنواعاً من الرياحين.

وطلب مما يحيط به من البلدان أوتاداً من العود والعنبر والمسك.

ولم يكتف بذلك بل جمع. كل ما قدر عليه من شجرات طيبة الرائحة.

ثم استعمل عقله القاصر المحدود فقال:

«لا شك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق عليّ المكان فرماه من القصر.

وما كاد القصر يخلو من هذا الحشيش، حتى ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك.

عندها تنبه حيث لا ينفعه التنبه.

وتذكر في وقت لا ينفع التذكر

أن الحشيش كان من خاصته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية بالرياحين غرضان.

الأول: إنتفاع الولد برائحته. وذلك قد أدركه الولد بعقله.

الثاني: اندفاع الحيات المهلكات برائحته، وذلك مما قصرت عن دركه بصيرة الولد، فاغتر بما عنده من العلم.

اغتر بما عنده، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله.

كما قال تعالى:

﴿ **ذلك مبلغهم من العلم** ﴾(١)

قال أيضاً:

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾(٢)

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتف في نفسه.

ولقد قال العلماء: إن قلب الآدمي كذلك القصر، فإنه معشعش حيات وعقارب مهلكات.

وإنما رقيتها وقيدها بطرق خاصة، هي المكتوبات والمشروعات بقوله تعالى:

﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾.

كتاباً موقوتاً على المؤمنين في كل عصر ومصر.

وكتاباً موقوتاً على الأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

وكتاباً موقوتاً على المجتمع لا يشذ عن هذه القاعدة إلا من ينطبق عليه قول الرسول - ﷺ:

(**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**).

وما قلناه في الصلاة نقوله في شعائر الحج وما فيه من هرولة وسعي وطواف وقدوم وغير ذلك. قال تعالى:

﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾(٣)

---

(١) سورة النجم آية رقم ٣٠

(٢) سورة غافر آية رقم ٨٣

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٢

والدعوة من القرآن إلى تربية الخيل ورباطها في سبيل الله وما يتبع ذلك من امتطاء صهواتها، والتدريب عليها. رياضة لجسمه، وصقل لعضلاته وتثبيت لبنيته. قال تعالى:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾[١].

وهذا الجسم يجب أن يعمل في حدود الطاقة ويستريح في حدود الاعتدال قال تعالى:

﴿ وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً ﴾[٢]

فالذي يسرف في إجهاد جسمه، يستهلكه من حيث لا يدري، وتركبه العلل والأمراض، ولا يحقق هدفاً ولا يصل إلى غاية.

يقول الرسول - ﷺ -:

«إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

والذي يسرف في الراحة وإمتاع الجسم، ويصل به إلى حد الترف لا يشعر بالراحة، بل يصاب جسمه بالكسل والضعف، ويعجز عن الحركة النشيطة القادرة.

وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله:

﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[٣].

والترف الزائد كما أنه مخل ببنية الإنسان فهو مخل لروح الجماعة، ومدمر لحياة الشعوب. ومفسد لطاقات أبنائها.

قال تعالى:

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠

(٢) سورة النبأ آية رقم ١٠

(٣) سورة محمد آية رقم ١٣.

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[١].

وإذا كان هذا هو منهج القرآن في تربية جسم الإنسان.. فما هي أسس هذا المنهج في تربية الروح..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في المنهج.

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٦٠.

تربية الروح

١ ـ منهج القرآن في تربية الروح
٢ ـ التقوى في منهج التربية

١

منهج القرآن في تربية الروح

سؤال نطرحه على أنفسنا وعلى الناس ما الروح. . ؟

وهل يمكن أن يوصف أو يعرف. . ؟

ومن في مقدوره أن يحدد أبعادها أو يدرك أوصافها. . ؟

لقد سأل اليهود رسول الله ـ ﷺ عن حقيقة الروح وكنهها فكان رد القرآن في ذلك حازماً وقاطعاً:

﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[١].

فالروح إذن شيء اختص الله بعلمه

وشيء محجوب لا يدرك.

وإذا كان كذلك. فهو يدخل في نطاق الغيب الذي لا تدركه العقول والذي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نؤمن به.

ونهانا عن البحث فيه ـ

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل.

ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده، وفي مجاله الذي يدركه.

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٥

فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه، لأنه لا يملك وسائل إدراكه.

ومع ذلك فإننا نتفق على أن الروح طاقة من طاقات الإنسان.

بل من أكبر طاقاته.

وهو المحرك لهذا الجهاز الآدمي.

وهو المطية التي تنقل الإنسان من الواقع المحس إلى الغيب المحجوب عن الحواس.

وهو وسيلة الهجرة

هجرة العبد إلى ربه

قال تعالى: ﴿ **إني مهاجر إلى ربي** ﴾(١).

والطريق المعبد للفرار إليه

قال تعالى: ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾(٢)

فالروح إذن مطية الهجرة لمن يريد أن يهاجر.

هجرة من نوع آخر، ومن طراز فريد.

هجرة من الخلق إلى الخالق.

ومن ظلام البصر إلى نور البصيرة

هجرة من الكون إلى خالق الكون

هجرة من ترابية الأرض إلى شفافية السماء

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ومن قتامة الأفكار إلى صفاء الإيمان.

والروح في القرآن وردت على سبعة أوجه.

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٦

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٠

الأول: بمعنى الرحمة قال تعالى:

﴿ **وأيَّدهم بروح منه** ﴾(١)

من هم أولئك الذين تأيدوا بروح من الله..؟

إنهم الذين ترفعوا على أنفسهم، وتجردوا من ذواتهم وكل ما يربطهم من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة.

﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾(٢)

فهو مثبت في قلوبهم بيد الله، مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن، فلا زوال ولا اندثار ولا انطماس فيه ولا غموض.

وما كان في مقدورهم أن يفعلوا ما فعلوه من بيع نفوسهم رخيصة في سبيل الله وقتل أقرب المقربين إليهم ممن يقفون في وجه الدعوة إلى الله إلا بروح من الله، وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح.

الروح الذي مدهم بالقوة والإشراق.

الروح الذي وصلهم بمصدر القوة والإيمان.

الثاني: بمعنى الملك الذي يكون في إزاء جميع الخلق يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفاً** ﴾(٣).

يقومون في ذلك اليوم القريب القريب، المهيب الرهيب، ويقف جبريل عليه السلام.

ويقف الملائكة الآخرون.

يقفون صفاً ولا يتكلمون إلا بإذن من الرحمن حيث يكون القول صواباً فما يـأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب.

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٢

(٢) سورة المجادلة آية رقم ٢٢

(٣) سورة النبأ آية رقم ٣٨

وموقف هؤلاء المقربين إلى الله، الأبرياء من الذنب والمعصية، موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وحساب يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار، وفي ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار.

﴿ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾[١].

الثالث: بمعنى جبريل عليه السلام قال تعالى: ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾[٣].

والروح الأمين جبريل عليه السلام - نزل بهذا القرآن من عند الله تعالى على قلب رسول الله - ﷺ -

وهو أمين على ما نزل به.

وهو حفيظ عليه.

نزل به على قلبه فتلقاه تلقياً مباشراً ووعاه وعياً مباشراً.

نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين.

الرابع: بمعنى الوحي والقرآن: قال تعالى:

﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾[٤].

روحاً فيه حياة تحرك القلوب وتنميها، وهو نور يخالط القلوب التي يشاء لها أن تهتدي به إلى صراط مستقيم.

وهو طريق الهداية التي يوصل سالكه إلى رحاب الله سبحانه وتعالى.

الخامس: بمعنى عيسى عليه السلام قال تعالى:

﴿ وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[٥].

---

(١) سورة النبأ آية رقم ٣٩

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣

(٣) سورة القدر آية رقم ٤

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢

(٥) سورة النساء آية رقم ١٧١

لقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى على اختلاف المذاهب هي عقيدة أن الإلّه واحد في أقانيم ثلاثة الأب والابن والروح القدس، والمسيح هو الإبن ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية..؟ وطبيعة ناسوتية..؟

أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط..؟

وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين..؟

وهل هو قديم كالآب..؟

أو مخلوق كبقية البشر..؟

إلى آخر ما تفرقت به المذاهب.

فعمل الإسلام على تصحيح هذه المعتقدات والانحرافات. وقال لهم: إن الذي وهب لآدم ـ من غير أبوين ـ حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه. لهو الذي وهب عيسى من غير أب هذه الحياة كذلك.

وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن القول بألوهية المسيح لمجرد أنه جاء من غير أب.

وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك.

تعالى الله عما يقولون علواً كبير.

السادس: في شأن آدم عليه السلام واختصاصه بفضله قال تعالى:

﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾(1)

«لقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال، ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء.

ثم ماذا..؟ ثم منحته خصائصه الإنسانية.

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٢٩

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للاتصال بالله والتلقي عنه.

وهو بهذا يتجاوز النطاق المادي المحسوس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول.

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه.

ومع خضوعه لضروراته وحاجاته.

حاجاته من طعام وشراب ولباس ومساكن.

وضروراته التي تلح عليه. من ضعف وقصور، ومن نزعات وحركات والتوازن بين خصائص العناصر الطينية والعناصر العلوية ـ هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه.

لأنه الكمال البشري المقدر له.

ومنهج القرآن في التربية. هو الذي يوجد التوازن في داخل الفرد.

ولا يسلك مسالك المذاهب الأخرى التي تطالب الفرد أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً.

لأن أيّاً منهما ليس هو الكمال المنشود للإنسان.

والقرآن يقرر أن الارتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق هو نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة.

والمناهج الأرضية التي تحاول أن تعطل طاقة الإنسان الجسدية. هي كأختها الأخرى التي تحاول أن تعطل طاقته الروحية.

كلاهما يخرج بالإنسان عن طريق الفطرة التي خلقه الله عليها.

وكلاهما يعمل على تدمير نفسية الإنسان بتدمير جزء من كيانها الأصيل .

من أجل ذلك أنكر الرسول ـ ﷺ ـ على من أراد أن يترهبن من الصحابة فلا يقرب النساء.

وعلى من أراد أن يصوم الدهر ولا يفطر.

وعلى من أراد أن يسهر الليل فلا ينام.

بقوله في الحديث الذي روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ فمن رغب عن سنتي فليس مني.

السابع: بمعنى اللطيفة التي فيها مدد الحياة.

قال تعالى: ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**[١]

يقول ابن هشام إن كفار قريش أرسلوا النضر بن الحرث وبعثوا معه عقبة ابن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة وقالوا لهما:

«سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا حكيمان من يهود عن رسول الله ـ ﷺ ـ ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم:

«إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا».

فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فَرَوْا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم..؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.!!

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه..؟

وسلوه عن الروح ما هي..؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي.

وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٥

فجاءوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا محمد. أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب.

وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.

وأخبرنا عن الروح ما هي..؟

فقال لهم رسول الله ـ ﷺ:

«أخبركم بما سألتم عنه غداً».

قال ذلك: ولم يستثن، فانصرفوا عنه.

فمكث رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا:

«وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه».

وأحزن رسول الله ـ ﷺ ـ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل من الله ـ عز وجل ـ بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح[١].

ومنهج القرآن في تربية الروح لا يختلف كثيراً عن منهجه في تربية العقل.

فإذا كان في تربية العقل يلجأ إلى تفريغه من كل المعتقدات التي لا تتفق ومنهجه فإنه في الروح يبدأ بقطع ما بينها وبين رغباتها وعاداتها السابقة، التي لا تتفق ومنهج القرآن.

ويبدأ أولى خطواته بتصفيتها من أمراضها الظاهرة والخفية وذلك عن طريق التوبة.

والتوبة في حقيقتها عودة العبد بقلبه إلى ربه.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ـ ٣٢٢ بتصرف

والتوبة إسلام جديد، والإسلام يجبُّ ما قبله

قال تعالى:

﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[١].

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله تعالى بها أهل الإيمان، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم.

ثم علق الفلاح بالتوبة تعلق المسبب بسببه وأتى بأداة لعل المشعر بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون وقال تعالى:

﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾[٢]

قسم العباد إلى تائب وظالم وليس هناك قسم ثالث ألبتة.

وأوقع الظلم على من لم يتب، فلا أظلم منه بجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وبآفات أعماله.

وفي صحيح مسلم أن الرسول ـ ﷺ كان يقول:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[٣]

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم:

«رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة.

وما صلى صلاة قط بعد نزول سورة النصر إلا قال في صلاته:

«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي».

---

(١) سورة النور آية رقم ٣١

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١١

(٣) الحديث رواه مسلم ـ كما في رياض الصالحين في باب التوبة بلفظ: يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة.

ووردت التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بعلى قال تعالى:

﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرلكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾[2]

الثاني: بمعنى الرجوع والإنابة وهذا مقيد بإلى قال تعالى:

﴿ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾[3].

وقال أيضاً:

يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[4]

الثالث: بمعنى الندامة على الذلة ـ وهذا غير مقيد لا بإلى ولا بعلى قال تعالى:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾[5]

فإذا تمت توبة العبد المؤمن، توبة صادقة خالصة وعاد إلى ربه وصفّي قلبه

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٥١

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٥

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٥

(٤) سورة التحريم آية رقم ٨

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٦٠

ونفسه، لجأ منهج القرآن الكريم إلى ربط ما بينه وبين مولاه، وأوجد صلة له مع خالقه عن طريق العبادات.

والصلاة أقرب الطرق إلى ذلك.

يقول القشيرى - رضي الله عنه - سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رضي الله عنه يقول:

«إن نبينا محمداً ﷺ - أتى للأمة بالمعراج على التحقيق. فإن الصلاة بمنزلة المعراج.

وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاثة منازل.

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى.

ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى.

فكذلك الصلاة ثلاثة منازل.

القيام ثم الركوع ثم السجود(١).

السجود وهو نهاية القرب.

قال تعالى: ﴿ **واسجد واقترب** ﴾(٢).

أي اقترب من الله بسجودك.

ورسول الله - ﷺ - يقول: عن السجود:

« **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٣).

ويروي الإمام مسلم - رضي الله عنه في صحيحه عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي - خادم رسول الله - ﷺ - ومن أهل الصفة - رضي الله عنه - قال:

---

(١) الطريق إلى الله - د. عبد الرحمن عميره.

(٢) سورة العلق آية رقم ١٩

(٣) رواه مسلم رقم ٤٧٩ في الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود وأبو داود رقم ٨٧٦ في الصلاة: باب الدعاء في الركوع والسجود والنسائي ١٨٩١/٢ في الافتتاح

«كنت أبيت مع رسول الله ـ ﷺ ـ فآتيه بوضوئه وحاجته
قال: أعني على نفسك بكثرة السجود»(١)

والسجود إذن من الوسائل التي توصل إلى الجنة، والجنة (في مقعد صدق عند مليك مقتدر)(٢).

ولقيمة السجود الكبيرة عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود، فصلاة الضحى يسمونها: سجود الضحى.

ومن صفات عباد الرحمن التي يزكيهم الله بها.

من صفات عباد الرحمن المقربين إلى ربهم

من صفات عباد الرحمن الذين ينسبون إلى الله تعالى.

أنهم يكثرون السجود ويكثرون القيام.

أنهم في صلاة دائمة مع ربهم.

قال تعالى: ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما (٦٤)** ﴾(٣)

أتكون الصلاة طريقاً للقرب من الله..؟

إذا كان ذلك كذلك فما الصلاة..؟

أهي صلة بين العبد وربه؟..

أهي نظام في اليوم والليلة للفرد المسلم والجماعة المسلمة..؟

أهي ضراعة ودعاء ورفع الأكف إلى السماء..؟

أهي رحمة مهداة من الله إلى العباد..؟

أهي أسلوب للحياة واتباع لنمط من أنماط التكاليف ليتعود المجتمع السمع والطاعة، والنظام والنظافة..؟

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٦ باب فضل السجود والحث عليه.

(٢) سورة القمر آية ٥٥

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ ـ ٦٤

أهي مؤتمر للأسرة الصغيرة خمس مرات في اليوم . . ؟
ومؤتمر للأسرة الكبيرة مرة واحدة في الأسبوع . . ؟
ومؤتمر عام للمجتمع المسلم مرتين في كل عام . . ؟
والحقيقة : أن الصلاة مجموع ذلك كله .

فالصلاة : هي الصلة بين العبد وربه ، والرابطة التي تربط الأرض بالسماء ومعراج المؤمنين إلى ربهم ، والمطية السريعة التي تنقلنا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى .

والصلاة رحمة مهداة من الله إلى عباده ومن الملائكة الأبرار إلى العباد المخلصين .

يقول الله تعالى : ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً (٤٣)** ﴾[١]

فوصف نفسه بأنه يصلي ، والصلاة هنا بمعنى الرحمة ، رحمة لأنها تخرج المؤمنين من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان ، ومن العماية إلى الهدى .

ومن شقاء الانحراف إلى سعادة الاستقامة
وصلاة الملائكة رحمة واستغفار
رحمة للعباد واستغفار للمؤمنين

قال تعالى : ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧)** ﴾[٢]

وصلاة الرسول لأمته رحمة ودعاء قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم :

﴿ **وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم (١٠٣)** ﴾[٣]

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٤٣
(٢) سورة غافر آية رقم ٧
(٣) سورة التوبة آية ١٠٣

ووصف نفسه وملائكته بأنه يصلي على رسوله الكريم، وطالب عباده بالدعاء والصلاة له قال تعالى:

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾(١)

وإذا كانت أوامر الإسلام ونواهيه وجزئياته وكلياته نزل بها الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب رسولنا الكريم - ﷺ - لتكون هذه الكليات والجزئيات إنذاراً وبشرى إلى الأمة، فإن الصلاة لم تأت عن طريق جبريل عليه السلام.

لم تأت عن طريق الوحي المعتاد.

ولم تأت عن طريق اتصال السماء بالأرض

ولكنها فرضت في منبع النور، وفي جوار الحق، هناك بالأفق الأعلى قال تعالى:

﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) ﴾(٢)

وقال:

﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨) ﴾(٣)

والصلاة فترة اتصال للحظات بين العبد الفاني وبين الله سبحانه وتعالى.

والصلاة فترة انقطاع كامل يجب أن يكون كاملاً عن عالم المادة وعن عالم الشهوات، عالم الفتنة.

لتتخلص النفس إلى المنعم في رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه. نقول إنها فترة مناجاة.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٦

(٢) سورة النجم آية رقم ٩

(٣) سورة النجم آية رقم ١٧ - ١٨

لأن رسول البشرية محمداً ـ ﷺ ـ ناجى ربه ـ وهو بالأفق الأعلى ـ ناجاه بكلمات، وتلقاه ربه بتحيات، أصبحت بعدها من الصلاة لقد قال الرسول ـ ﷺ ـ وهو قريب من ربه:

التحيات لله والصلوات والطيبات.

وحياه ربه؛ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

ورد الرسول عليه السلام ومعه ملائكة أبرار، ومرسلون أخيار، وتحية ربه، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وكأن الوجود بأسره والعالم بأجمعه قد تحول إلى جوقة في رحاب محكمة الخالق المبدع لتشهد وتؤكد وتقرر وتعترف بقولها:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم ماذا..؟

ثم فرضت الصلاة على أمة محمد ـ ﷺ. فرضت في منبع النور، عند سدرة المنتهي، عندها جنة المأوى

فرضت في ليلة مباركة ـ ليلة الإسراج والمعراج.

ويُسأل الرسول ـ ﷺ ـ عن حقيقة الصلاة فيقول:

«الصلاة مناجاة بين العبد وربه»

مناجاة بين الخالق والمخلوق.

تعانق الأرض بقباب السماء

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: قال الله تعالى:

قسمت الصلاة ـ أي الفاتحة ـ بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل.

فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: الرحمن الرحيم..

قال الله تعالى: أثنى على عبدي.
وإذا قال: مالك يوم الدين.
قال: مجدني عبدي.
وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين.
قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.
وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.
قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[١]

وإذا كان للصلاة هذه المكانة عند الله

وإذا كانت الصلاة وسيلة نتقرب بها إلى الله ـ فإنها من أعظم العبادات لتربية الروح وتطهيرها. وتصفيتها من أدرانها ومفاسدها.

وما قلناه في الصلاة نقوله أيضاً في الصوم والزكاة والحج.

ومن وسائل تربية الروح في منهج القرآن توجيه العبد إلى حب الله. قال تعالى:

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (٩٦) ﴾[٢]

والجماعة التي يحبها الله وتحب الله، هي جماعة قوية، جماعة متضامنه، جماعة متحابة قال تعالى:

﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه (٥٤) ﴾[٣]

ووسيلة القرآن إلى إيجاد الحب في قلب الإنسان أن يوجه إلى إبداع الله في الكون والحياة.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن رقم ٤٠٢٧ وقال هذا حديث حسن وقد رواه شعبة واسماعيل بن جعفر وغير واحد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

(٢) سورة مريم آية رقم ٩٦

(٣) سورة المائدة آية رقم ٥٤

ويوجه قلبه وبصره إلى عناية الله التي يحيط بها خلقه، ويوجهه إلى التأمل في آثار قدرته وعلمه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى آيات كثيرة تدل على المحبة بين الخلق والخالق قال تعالى:

﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله (١٦٥)** ﴾[١]

وقال: ﴿ **إنْ كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (٣١)** ﴾[٢]

وحقيقة الاستحباب أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبه، واقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار وفي الحديث الصحيح:

«إذا أحب الله عبداً دعا جبريل فقال:

إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل.

ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض[٣].

وفي الصحيح أيضاً؛ قال رسول الله ـ ﷺ ـ

ثلاث من كن فيه وجد بهن علامة الإيمان.

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٤]

وفي صحيح البخاري يقول الله تعالى:

﴿ **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلى من آداء ما افترضته عليه** ﴾

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣١

(٣) روى هذا الحديث في البخاري ومسلم كما في رياض الصالحين.

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان

ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه(١)

وفي الصحيحين من حديث أمير السرية الذي كان يقرأ:

«قل هو الله أحد» لأصحابه في كل صلاة وقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها.

فقال النبي - ﷺ:

«أخبروه أن الله يحبه»(٢)

وعن الترمذي عن أبي الدرداء يرفعه:

«كان من دعاء داود عليه السلام:

«اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد».

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي أن النبي - ﷺ كان يقول في دعائه:

«اللهم ارزقني حبك، وحب من يحبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما يحب».

ثم تأتي الخطوة الأخيرة في تربية الروح وهي توجيه الناس إلى خالقهم وردهم إلى ربهم وإشعارهم بأنه قريب منهم.

قريب منهم في السر والجهر.

قريب منهم في الليل والنهار

---

(١) رواه البخاري

(٢) رواه البخاري ومسلم كما في رياض الصالحين.

قال تعالى:

﴿ وهو معكم أينما كنتم (٤) ﴾[١]

وقال أيضاً:

﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦) ﴾[٢]

أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، أقرب إليه من همسه الذي يكون بين شفتيه.

قال تعالى: ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلّا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (٦١)[٣]﴾

عندما يشعر الفرد أن الله معه يحصي حركاته ويسجل أعماله فلا بد من تنظيف سلوكه وفكره، وتنظيف شعوره وقلبه، لا لأن الناس معه وهو مضطر إزاءهم أن يتنظف وإنما لأن الله معه دائمًا وفي كل لحظة.

قال تعالى:

﴿ هو معهم أين ما كانوا (٧) [٤]﴾ .

فإذا كان في مقدور الفرد أن يستتر من الناس، فهل في مقدوره أن يستتر من الله..؟

وإذا كان في مقدوره أن يغلق على نفسه باباً لا يراه منه أحد، فهل في مقدوره أن يفعل ذلك مع الله..؟

فإن أقام سياجاً بينه وبين الناس فما هو بمستطيع أن يقيم سياجاً بينه وبين الله

قال تعالى:

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٤

(٢) سورة ق آية رقم ١٦.

(٣) سورة يونس آية رقم ٦١.

(٤) سورة المجادلة آية رقم ٧

﴿ يعلم السر وأخفى[١] ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر (٦١) ﴾[٢].

عندها يؤدي الفرد عمله، وهو يرى ربه معه، في كل ما يأتي من أمر أو ينتهي عن نهي .

فكأن الفرد لا يتعامل مع مجتمعه، ولكن تعامله مع ربه، أو بعبارة أوضح يتعامل مع هذا المجتمع والشاهد الله .

هذا الفرد يتحرج أن يخدع غيره، وهو يعلم أن الله معه، ويمتنع عن ارتكاب جريمة في جنح الظلام وهو يحس أن عين الله ترقبه .

فإذا جمحت الشهوة في داخل الإنسان، وسقط سقطته، وكان ذلك حيث لا ترقبه عين ولا تناله يد القانون، تحولت نفسه في داخله نفساً لوامة عنيفة، ووخزاً لاذعاً للضمير، وخيالاً مروعاً لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام حاكم المسلمين .

يعترف بذنبه ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرين .

والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه النماذج من الرجال والنساء الذين صفت روحهم وطهرت سريرتهم .

ومن ذلك ما يرويه بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال :

---

(١) سورة طه آية رقم ٧

(٢) سورة يونس آية رقم ٦١

جاء ماعز إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله: طهرني.
قال: ويحك ارجع فاستغفر الله: وتب إليه.
فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني.
قال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه.
فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله: طهرني.
فأعاد القول. وأعاد هو. حتى إذا كانت الرابعة. قال رسول الله - ﷺ: مم أطهرك..؟

قال من الزنا.
فقال رسول الله - ﷺ: أبه جنون..؟
فأخبر أنه ليس به جنون
فقال: أشرب خمراً..؟
فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر.
فقال رسول الله - ﷺ - أزنيت..؟
قال: نعم فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين. فقائل يقول: قد هلك لقد أحاطت به خطيئته.
وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز.

إنه جاء إلى رسول الله - ﷺ - فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة.
قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله - ﷺ - وهم جلوس - فسلم ثم جلس فقال:
«استغفروا لماعز بن مالك».
فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك.
فقال رسول الله - ﷺ:
لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني.
فقال ويحك، ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه
قالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك.
قال: وما ذاك..؟
قالت: إنها حبلى من الزنا.
قال: أنتِ..؟
قالت: نعم.
فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك.
قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال: فأتى النبي ﷺ.
فقال: قد وضعت الغامدية.
فقال: إذا لا نرجمها وندع ولدها صغير السن، ليس له من يرضعه.
فقام رجل من الأنصار فقال:
إليّ رضاعه يا نبي الله فرجمها[1]»

وهكذا نجد أن منهج القرآن في تربية الروح منهج فريد ـ يربط الإنسان بالإيمان، ويقربه من خصائص التقوى، حتى يستحق ما خلق من أجله ـ وهو عبادة ربه ـ والقيام بتكاليف الخلافة في الأرض. قال تعالى:

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة [2] ﴾

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٦٩٥ في الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا وأبو داود رقم ٤٤٣٣، ٤٤٣٤ في الحدود باب رجم ماعز بن مالك وباب المرأة التي أمر النبي ـ ﷺ برجمها من جهينة.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٣٠.

٢

التقوى في منهج التربية...

يروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل أُبَيَّ بن كعب عن التقوى..؟

فقال كعب: أما سلكت طريقاً ذا شوك..؟

قال: فما عملت..؟

فال: شمرت واجتهدت. قال! فذلك التقوى.

ومنه حديث الرسول - ﷺ - التقىٌّ ملجم[1].

ملجم عن الرغائب الكاذبة

وملجم عن الشهوات الطاغية.

وملجم عن الهواجس، وعن الرجاء ممن لا يملك إجابة رجاء.

وملجم عن الخوف، الخوف على الرزق، والخوف على المنصب، والخوف على الحياة ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً.

والتقوى: حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور.

والتقوى: خشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق.

التقوى: دعوة من الله لعباده قال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري جـ ١ ص ١٦١

﴿ يا عبادي فاتقون[١] ﴾

والتقوى؛ دعوة من الله لأنبيائه ورسله قال تعالى:

﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً[٢] ﴾

والتقوى: دعوة الرسل والأنبياء للإنسانية قاطبة والبشرية كلها، نوح عليه السلام يدعو قومه إلى التقوى: قال تعالى

﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون[٣] ﴾

وهود عليه السلام يدعو قومه للتقوى قال تعالى:

﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون[٤] ﴾

وعندما خالف قوم صالح أمر الله تمردوا على رسولهم، وهموا بذبح الناقة قال لهم:

﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون[٥] ﴾

وقوم لوط كانوا يأتون الفاحشة وهموا أن ينالوا من ضيوفه فناشدهم التقوى قال تعالى:

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) ﴾[٦]

وقوم إبراهيم عبدوا الأصنام وألّهوا الأفراد، وسجدوا للشمس والقمر فنهاهم عن ذلك، ودعاهم إلى عبادة الواحد الأحد. قال تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم

---

(١) سورة الزمر آية ١٦
(٢) سورة الأحزاب آية ١
(٣) سورة الشعراء آية ١٠٦
(٤) سورة الشعراء ١٢٤
(٥) سورة الشعراء آية ١٤٢
(٦) سورة الشعراءآيات من ١٦١ ـ ١٦٣

الطوفان وهم ظالمون (١٤) فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (١٥) وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١٦) ﴾[١]

ويحكي القرآن الكريم موقف شعيب من قومه عندما كذبوا دعوته، وكفروا برسالته، ولجوا في ضلالهم وكفرهم، قال تعالى:

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) ﴾[٢]

ويؤكد القرآن نبوة إلياس عليه السلام ورسالته بدعوته إلى التقوى، قال تعالى:

﴿ وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) ﴾[٣]

وكل الأنبياء والرسل قبل بعثة محمد ـ ﷺ ـ كانوا يدعون قومهم إلى التقوي ويطالبون أتباعهم بها قال تعالى:

﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله[٤] **﴾**

ونحن لو استعرضنا كل تكاليف الإسلام وجدناها كلها تدعو إلى التقوى، أو ما تتحقق به التقوى، أو سبباً من أسبابها

ففريضة الصلاة ترتبط بالتقوى قال تعالى:

﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون[٥] **﴾**

والصيام عبادة فرضت على البشرية كلها، وفرضها الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية بغية الوصول إلى التقوى. قال تعالى:

---

(١) سورة العنكبوت آيات من ١٤ ـ ١٦

(٢) سورة الشعراء آيات ١٧٦ ـ ١٧٩.

(٣) سورة الصافات آية رقم ١٢٤

(٤) سورة النساء آية رقم ١٣١

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٧٢

﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون [١] ﴾

وفريضة الزكاة التي أوجبها الله ـ سبحانه وتعالى على عباده، لتطهر قلوبهم من الشح، وتطهر أموالهم من الخبث، وتشيع المحبة بين المجتمع ترتبط بالتقوى قال تعالى:

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون(١٥٩) [٢] ﴾

وما دام يؤدي زكاة أمواله فهو الرجل الذي يتصف بمواصفات التقوى ـ فيكون بعيداً عن النار التي أعدت للكافرين، وعن الشقاء الذي يُصبّ عليهم ليل نهار، أما الأتقياء فهم في رحاب الرضى آمنون.

الرضى بأحكام ربهم.

والرضى بدينهم الذى ارتضى لهم

والرضى بقضاء الله وقدره عليهم.

إنهم راضون فلا يمسهم القلق أو الضيق

وفي رحاب الرضا آمنون فلا يخافون أو يضطربون، قال تعالى:

﴿ وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى (٢١) [٣] ﴾

والحج ومناسكه، وإقامة شعائره، كما يحب الله ويرضى هو من تقوى القلوب قال تعالى:

«ذلك ومن يُعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب». [٤] وإقامة حدود الله، ومنع الفساد في الأرض، وتحكيم شرع الله سبيل إلى التقوى قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦

(٣) سورة الليل آية ١٧ ـ ٢١

(٤) سورة الحج آية رقم ٣٢

﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (١٧٩) ﴾[١]

وإقامة العدل يقرب إلى التقوى قال تعالى: **﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى(٨) ﴾**[٢]

والامتناع عن أكل الربا طريق إلى إشاعة التقوى قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون(١٣٠) ﴾[٣]

والجهاد في سبيل الله، والرباط في الثغور، والصبر على قتال الأعداء يرتبط بالتقوى في كتاب الله. قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢٠٠) ﴾[٤]

والتقوى طريق لتفريج الكروب والنكبات، ورفع الغمة عن الأفراد والجماعات، وعامل من عوامل زيادة الرزق قال تعالى:

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً (٣) ﴾[٥]

مخرجاً من ضيق الدنيا ونكباتها.

ومخرجاً من مفاتنها وشهواتها، ومخرجاً من ظلامها، وسياج الظالمين بها

ومخرجاً من ضيق الآخرة وكرباتها.

ويرزقه من حيث لا يحتسب.

رزقاً فيه بركة غامرة ورزقاً فيه نماء.

رزقاً معنوياً يفتح بصيرته وبصره.

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩

(٢) سورة المائدة آية ٨

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٣٠

(٤) آل عمران آية ٢٠٠

(٥) سورة الطلاق آيات ٢ ـ ٣

ورزقاً مادياً فيه غناه وطلبته.

والتقوى طريق اليسر والسهولة، وتحقيق الرغائب والمطالب قال تعالى:

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا[١]﴾

والتقوى تكفر الخطايا وتبارك الأجر قال تعالى:

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾[٢]

والتقوى: جهاز ينبه صاحبه فلا ينحرف.

ويحوطه بالرعاية فلا تتلقفه المغريات.

ويحصنه من وساوس الشيطان، ومن جموح الشهوات، ومن سيطرة الهوى

والتقوى: نور يهدي صاحبه ويكشف له منحنيات الطريق ونتوءات الدروب.

التقوى فرقان في القلب.

فرقان في القلب فلا تتشابك الأمور في حسه وعقله.

ولا تختلط المسالك في بصره وبصيرته.

ولا يتلبس في مخيلته الحق بالباطل. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً (٢٩)[٣]﴾

والتقوى سبب من أسباب إحلال البركات وسبيل لتنزل الغيث من السماء

الغيث: الذي يحيي الأرض بعد موات.

الغيث: الذي يرويها بعد الجفاف، فتعطي الخير وتنتج الثمار بإذن الله، فتساهم في إنماء الحياة. وفي زيادة الرخاء، وفي تطوير الوجود.

والتقوى: سبب من أسباب معرفة كنوز الأرض، والاهتداء إلى ما في باطنها من ثروات مخبوءة وكنوز مطمورة.

---

(١) سورة الطلاق آية رقم ٤

(٢) سورة الطلاق آية رقم ٥

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٢٩

ثروات لم تصل إليها يد البشرية بعد

ونحن نعلم أن الأرض أعطت من على ظهرها للبشرية في تاريخها الطويل زرعاً كثيراً وثماراً جمة، ولا زالت تعطي لهم. ولم تبخل ولم تتوقف عن العطاء في يوم من الأيام. قال تعالى:

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾

وأعطت لهم من باطنها، باطنها القريب والبعيد.

أعطت البترول ومنتجاته.

والمعادن وأنواعها

والفحم وتنوعاته وأشكاله.

ولكن لا زال هناك في السماء خير كثير ينتظر القلوب المؤمنة حتى يتدفق ويتتابع:

ولا زال في باطن الأرض كنوز وكنوز، ولكنها لا تعطي سرها، لكل باحث ولا تعرض ثراءها لكل طالب، بل لها سر مغلق لا تكشفه إلا لشفافية الضمائر، ولا تدل عليه إلا لصدق البصائر.

ولا تهبه إلا لتقوى القلوب، تنفيذاً لوعد ربها قال تعالى:

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (٩٦)[١] ﴾

والتقوى عامل من عوامل النصر.

النصر في معركة الإنسان مع نفسه ليجردها ويحررها من قيودها التي تطمس على شفافيتها، وتحول بينها وبين الفرار إلى الله. قال تعالى:

﴿ ففروا إلى الله (٥٠)[٢] ﴾

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٩٦

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٠

النصر في معركته مع الشهوات والرغائب والمتطلعات التي لا تتفق مع شرع الله

النصر على النفس عندما يخلصها من حظ ذاتها ومن أدرانها ومن أحقادها، وأصفادها.

النصر عليها حتى تتجرد من قوتها إلى قوة الله، ومن وسائلها إلى قدرة الله، ومن أسبابها إلى أمر الله.

والتقوى: عامل من عوامل النصر.

النصر على أعداء العقيدة، أعداء الشريعة، أعداء الله.

النصر في المعارك الحربية، ضد جيوش الظلام، وأعداء البشرية.

النصر في المعارك السياسية، أمام جحافل المراوغة والمحاورة والكيد والدس، والدجل الرخيص.

قال تعالى:

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً (١٢٠)[١] ﴾

والتقوى طريق إلى العلم.

طريق إلى تعلم الكتاب والحكمة.

وطريق إلى فقه التاريخ وطبائع الأمم

وطريق إلى معرفة ما في باطن الأرض من كنوز ومعادن

والوقوف على أسرار وظائف الإنسان في داخل جسمه.

وإلى معرفة أعماق البحار وأسماكها، وخواص المحيطات وكنوزها.

إنه العلم الذي يتناول كل موجود. وكل ما لم يوجد. فهو علم شامل محيط يلهمه العبد من ربه قال تعالى:

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠

﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم[١] ﴾

وأهل التقوى هم أهل الله.

أهل الله: الذين تمذهبوا بقرآن ربهم، وتأدبوا بأدب نبيهم، وأقاموا نفوسهم على شرع الله وهدي نبيه.

هؤلاء: لا شك أن يكون لهم الأجر الأوفى، والنعيم المقيم. إنهم ورّاث الأرض. قال تعالى:

﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٢] ﴾

والذي يرث الأرض يقوم بأداء حق الخلافة فيها، وحق الخلافة إشاعة الأمن بين الناس فلا يصيبهم خوف.

ونشر المحبة في أرجاء المجتمع فلا يكون بغض.

وتعمير الأرض، وإخراج ما في باطنها من كنوز، فلا يكون فقر أو مسغبة.

وتطهير النفوس من أمراضها وأدرانها حتى تعرف صحيحة وقوية.

والذي يرث هذه الأرض. مطالب بإقامة شرع الله فيها، وتطبيق قانونه لتنفيذ عدله وحكمه.

فإن كان حاكمًا، فهو يصلي ويؤم الرعية في الصلاة

ويخرج زكاة ماله، ويشرف على جمعها من الآخرين.

ويصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع

يجيش الجيوش ويقودها.

يحمي الثغور ويقدر تبعاتها

إن فعل ذلك، فله من ربه الجزاء الأوفى والنعيم المقيم في الدار الآخرة قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٢٨

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[١] ﴾.

والتقوى طريق إلى الجنة قال تعالى:

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين[٢] ﴾.

أعدت لاستقبال الصالحين المتقين. وتهيأت لحضورهم، قال تعالى:

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين (٩٠)[٣] ﴾

وهكذا يتتبع منهج القرآن حياة المسلم ويأخذ بيده فيها حتى يصنع منه في النهاية الإنسان الصالح خليفة الله في الأرض. فإذا جاء أجله. . وانتهت حياته على ظهر الأرض ـ فهو في جنة عدن عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة القصص آية رقم ٨٣
(٢) سورة آل عمران رقم ١٣٣
(٣) سورة الشعراء آية رقم ٩٠

منهج القرآن
بين
الدوافع والضوابط

١ ـ منهج القرآن في تربية الدوافع الفطرية
٢ ـ دافع الطعام والشراب
٣ ـ دافع الجنس
٤ ـ دافع التملك
٥ ـ دافع الخوف والرجاء
٦ ـ دافع الحب والكره

١

منهج القرآن في تربية الدوافع الفطرية

أشار القرآن الكريم إلى الدوافع الفطرية لدى الإنسان، وهو حينما يذكرُها يرسِمُ لها طريقَها المشروعَ الذي يتسق مع مصلحة الفرد ومصلحة المجموع، وإذا كانت بعض الديانات السابقة على الإسلام وبعض رجال التربية أوصوا بكبح الدوافع، أو القضاء عليها، فإن القرآن الكريم يخالِفُهم فيما ذهبوا إليه ويدعو إلى تربية الدوافع بمنهج سليم.

والقارىء لكتاب الله تعالى يرى أنه ليس فيه دعوةٌ للعزوف عن الطيبات أو النفور منها قال تعالى:

﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**[١] ﴾.

وليس في القرآن زهدٌ أو تقشف يزيدُ عن الحاجة قال تعالى:

﴿ **يا أيها الرسل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**[٢] ﴾

وليس في القرآن دعوة إلى الرهبانية قال تعالى: ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء**[٣] ﴾

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٢

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٥١

(٣) سورة النساء آية رقم ٣

وليس في القرآن انصرافٌ عن النعيم أو التخوف منه، أو محاولة إخفائه قال تعالى: ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث [١] ﴾.

ويطالب القرآن أتباعه أمام هذه الطيبات بالضبط والاعتدال، لأن عدم الضبط يؤدي إلى اختلال في شخصية الإنسان، والإسراف يؤدي إلى الأمراض المعنوية والحسية قال تعالى:

﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين [٢] ﴾

ومن هذا المنهج يوجه القرآن أتباعه إلى النظافة، وإلى تحصيل عوامل القوة المادية والمعنوية التي تساعد المسلمين على تعميرِ الكون، والمحافظةِ على حياتهم والحرص عليها قال تعالى:

﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا ﴾ [٣].

ومن هنا يتضح أن القرآن يهتمُّ بتربية الدوافع والمحافظة عليها، ويسموبها عن الوضع الحيواني، ويوجهها إلى ما يتسق مع مصلحة الأفراد والجماعات ويحول بينها وبين الانحراف.

فمن ذلك أنه يعالج انحراف دافع الملكية الذي يكون بطرق غير مشروعة بوضع سدٍ أمام مجرى الانحراف كما يضع المهندس سداً عالياً في مجرى النهر ليوجهه الاتجاه النافع المفيد. ولما كان الحديد لا يفلهُ إلا الحديد. فإن الدافع لا يصده إلا دافع مثله، وقد وضع القرآن الكريم أمام دافع الملكية دافع النفورِ والخوف.

أما النفورُ فقد صور الله سبحانه وتعالى الحريصين على أموالهم في صورة

---

(١) سورة الضحى آية رقم ١١
(٢) سورة الأعراف اية رقم ٣١
(٣) سورة النساء آية رقم ٢٩

منكرة حيث جعل أيديهم مغلولةً إلى أعناقهم قال تعالى:

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة[١] ﴾

ثم صور بخلهم بصورة أخرى تدعو إلى الانقباض قال تعالى:

﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصَابَه الكبرُ وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت[٢] ﴾

أما دافعُ الخوف: فقد أنذر الله هؤلاء الحريصين على الجمع والكنز بحرب من الله ورسوله قال تعالى:

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون[٣] ﴾

وبعد أن وضع القرآن الكريم هذين السدين أمام دافع الملكية ليصدها عن الانحراف عَمِل على إشباعها فأفسح أمامها المجالَ للنمو والازدهار بالطرق المشروعة قال تعالى:

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذَلُولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٤] ﴾

ثم يثيرُ سبحانه دافعَ الملكية عند الأفراد ويدفَعُه للسمو عن طريق نفسه فالفرد إذا راعى حق الله وحقوق العباد فإن ملكه يذكو وينمو ويتضاعف في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٦

(٣) سورة التوبة آية ٣٤

(٤) سورة الملك آية ١٥

وقد تفضل الله سبحانه وتعالى على عباده إذا أدَّوا ما عليهم أن يردَه عليهم مضاعفاً إلى عشرة أمثاله بل إلى سبعمائة ضعف فهو المنعم المعطي الوهاب قال تعالى:

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلةمائة حبة والله يضاعف لمن يشاء [١] ﴾.

ودافع الخوف أيضاً قد يرتبط بالعقاب العاجل في الدنيا والعقاب المؤجل في الآخرة.

وقبل العقاب يستخدم القرآن القدوةَ والموعظةَ الحسنةَ، والترغيب في الثواب فإذا لم تجُد هذه الوسائلُ. كانت الطرقُ الأخرى من التخويف والترهيب بجميع درجاته من التهديد إلى التنفيذ.

فهو مرة يهدد بعدم رضاء الله تعالى:

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهُم لذكرِ الله وما نزل من الحق [٢] ﴾

ومرة يهدد بغضب الله صراحة كما جاء في حادث الإفك قال تعالى: **﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُهُ في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم [٣] ﴾**

ومرة يهدد بحرب الله ورسوله، قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله [٤] ﴾

ومرة يهدد بعقاب الآخرة قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١
(٢) سورة الحديد آية ١٦
(٣) سورة النور آية ١٤
(٤) البقرة آية ٢٧٩

﴿ والذين لا يدْعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقْتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنُون، ومن يفعل ذلك يلقي آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا[١] ﴾

ثم يهدد بالعقاب في الدنيا قال تعالى:

﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا[٢] ﴾

ويقول أيضاً: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا[٣] ﴾

درجات متفاوتة لدرجات الناس.

فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف.

ومنهم من لا يرُدِعُه إلا الغضب الجاهر الصريح.

ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ، ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه.

ومنهم بعد ذلك فريق لا بد أن يشهد لذع العقوبة على جسمه. أنماط شتى ومجموعات متباينة من الخلق:

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رَحمَ ربُك ولذلك خلقهم[٤] ﴾

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نتكلم عن الدوافع لدى الإنسان وموقف منهج القرآن من هذه الدوافع. وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) الفرقان آية ٦٨

(٢) سورة التوبة آية ٥٥

(٣) سورة المائدة آية ٣٨

(٤) سورة هود آية ١١٩

٢

دافع الطعام والشراب

تكلمنا عند حديثنا عن منهج القرآن في تربية جسم الإنسان إلى أهمية الطعام بالنسبة للجسم، وحصرنا وظيفة الطعام في قواعد ثلاث.

الأول: توليد الطاقة في جسم الإنسان التي تدفعه وتساعده لتعمير الكون وتنظيم شؤون الحياة.

الثاني: إيجاد القوة للدفاع عن نفسه ضد أعداء الحياة، والدفاع عن شرع الله أمام المعوقين له، والحائلين دون تطبيقه.

الثالث: إيجاد الطاقة الجنسية لحفظ النوع وتكاثر الجنس البشري وقيام المودة والمحبة بين الزوجين.

ونضيف هنا إلى أن تناول الطعام بالنسبة للإنسان يختلف عن تناوله لبقية الكائنات التي تعمر الكون معه.

فطعام الإنسان وشرابه يجب أن يبدأ باسم الله، وأن يكون مما ذكر اسم الله عند اعداده أو ذبحه.

قال تعالى:

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى

أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم إنكم لمشركون (٢١) ﴾[١]

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعه الله، تخرجه من الإسلام.

يقول ابن كثير:

وقوله تعالى: ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فهذا هو الشرك. كقوله تعالى: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**[٢] ﴾.

وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي ابن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم فقال: بلى. إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم[٣]».

كذلك روى ابن كثير عن السدي في قوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله الآية

استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً** ﴾.

أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ».

والطعام ينبغي أن يكون حلالاً طيباً.

قال تعالى:

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب**

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢١

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣١

(٣) تفسير الترمزي ذكره الترمذي رقم ٥٠٩٣ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

المعتدين (٨٧) وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (٨٨)[١] ﴾

لقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح والتوازن المطلق والتناسق الكامل بين طاقات البشرية، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان.

ومن هنا كان التحليل والتحريم من الله سبحانه وتعالى، و ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له. من وجهين:

الوجه الأول: أن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجري فيه التحليل والتحريم من الرزق. وإلا فهو الاعتداء الذي لا يحبه الله ولا يستقيم معه إيمان.

والوجه الثاني: أن الله يحل الطيبات فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات التي بها صلاحه وصلاح الحياة، فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ بصر الحكيم الخبير الذي أحل هذه الطيبات.

وهناك أنواع من الأطعمة والأشربة يجب أن يمتنع عنها لأنها مضرة بالجسم، ومخلة بسلامة العقل. إلا في حالات الضرورة - وهذه الأنواع هي التي ذكرتها آية المائدة قال تعالى:

﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق[٢] ﴾

والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم فضلاً على ما أثبته الطب بعد فترة

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٧، ٨٨.

(٢) سورة المائدة آية رقم ٣

طويلة من تحريم القرآن قبله من تجميع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة وفي الدم وما قلناه في الدم والميتة يقال في الخنزير.

وأما ما أهل لغير الله به فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان. وأول مقتضيات الإيمان. أن يكون التوجه لله وحده بكل نية وبكل عمل. فما يهل لغير الله به ينقض الإيمان من أساسه. فهو خبيث من هذه الناحية، يلحق بالخبائث الحية من الميتة والدم ولحم الخنزير وبقية المحرمات التي ذكرت في هذه الآية.

ومن الضبط لدفاع الطعام عند الإنسان المسلم:

ألا يأكل حتى التخمة

ولا يأكل زيادة عن الطاقة.

ولا يسرف في تناول الطعام والشراب قال تعالى:

﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣١)** ﴾[1].

يقول الإمام القرطبي: إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسمًا في أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام ويطوفون عراة. فقيل لهم: خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا:

والإسراف مجاوزة الحد في النفقة وغيرها وتارة يقال اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفية ولهذا قال سفيان:

«ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً».

وقال تعالى: ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار**[2] ﴾

أي المتجاوزون في أمورهم الحد.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١

(٢) سورة غافر آية رقم ٤٣

وقوله: ﴿ **يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**[1] ﴾.

تجاوزوا الحد في المعصية، ولجوا في الذنب، وأبقوا عن الحمى، وشردوا عن الطريق السوي. هؤلاء ليس بينهم وبين الرحمة الندية الرخية إلا التوبة؛ التوبة وحدها. والأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان.

ومن الإسراف أن يمد يده إلى أموال الآخرين.

أو يسطو على الآمنين المطمئنين.

ومن الإسراف أن يغش في بيعه وشرائه ليزداد ربحه ويأكل في سبعة أمعاء أو يستعمل أساليب الخداع.

أو يذل نفسه ويهين كرامته.. ويمد يده في غير حاجة ولا مخمصة.

قال تعالى:

﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)**[2] ﴾

القلب المؤمن يدرك أن المقصود من هذه الآية ليس هو إهمال الأرض وأسبابها فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها. وإنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون.

ومن الضوابط التي يضعها منهج القرآن لدافع الطعام. ألا يجعل الطعام همه الشاغل، ولا هدفاً في ذاته، وإنما الطعام وسيلة للأهداف السابقة التي ذكرناها في أول الحديث.

يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم:

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢٢ ـ ٢٣

«ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه، حَسْبُ الآدمي لُقَيمات يَقِمْنَ صُلْبه فإن غلبت الآدمي نفْسُهُ:

فثلث للطعام.

وثلث للشراب.

وثلث للنفس.

ويحرص ألا يأكل بمفرده. أو يخص نفسه بلذيد الطعام والشراب ويترك لأسرته الفتات والنفايات قال تعالى:

﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير(٢) ﴾.

وفي إطعام الفقير والمحتاج تزكية لماله - وتطهير لنفسه وإحلال البركة والخير في كل ما يأتي وما يدع.

وهكذا نرى منهج القرآن.. لا يهمل الدوافع.. ولا يتركها تعمل بلا ضابط أو ميزان.. ولكن يضع لها ما يصلحها وما فيه الخير للفرد والمجتمع..

(٢) سورة الحج آية رقم ٢٨

٣

دافع الجنس

الجنس دافع من أقوى الدوافع لدى الإنسان، وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى:

هذه الحكمة: هي تعمير الكون وإقامة الخلافة في الأرض، واستمرار الحياة فيها.

والجنس في منهج القرآن ليس هو ينبوع القذارة والخطيئة - كما يَدعى أصحاب بعض المذاهب والديانات السابقة.

وليس - وحده - هو الطاقة المحركة لكيان الإنسان كما يدعي «فرويد» ومدرسته.

وليس هو مسألة «بيولوجية» تؤدى على قارعة الطريق أو خلسة بين إثنين كما يفعل بعض دعاة المدنية الحديثة.

وليس هو رجلاً لكل النساء، أو امرأة لكل الرجال كما يفعل دعاة الشيوعية والاشتراكية - ومن سار سيرهم.

وإنما هو دافع، ودافع نظيف، وله وظيفة محددة قال تعالى:

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم[1] ﴾

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢٣

إن التعبير بالحرث ـ يناسب هذا الواقع لأنه واقع إخصاب وتوالد ونماء. وما دام حرثاً فأتوه بالطريقة التي تشاءون ولكن في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث.

واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى فيكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم واستيقنوا من لقاء الله الذي يجزيكم بما قدمتم.

﴿ وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه[١] ﴾

وبذلك حدد منهج القرآن العلاقة الجنسية بتلك الصورة الموحية الجميلة صورة الأرض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها، حتى تنبت وتأتي ثمرة جديدة من نفس النوع.

والجنس بهذا التصور وسيلة لبقاء النوع الإنساني وانتشاره: قال تعالى:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء[٢] ﴾

وهو وسيلة السكن والراحة، والمودة والرحمة قال تعالى:

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢١)[٣] ﴾

إن هذه الصلة التي تكون بين الرجل وزوجه ـ هي صلة المودة والرحمة

صلة فيها السكن للنفس والعصب.

صلة فيها الراحة للجسم والقلب

صلة فيها استقرار الحياة والمعاش.

وأنساً للأرواح والضمائر. واطمئناناً لكل من الرجل والمرأة

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢٣

(٢) سورة النساء آية رقم ١

(٣) سورة الروم آية رقم ٢١

إن المؤمن يدرك حكمة الله سبحانه وتعالى في جعل كل من الجنسين موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية.

سواء كانت هذه الحاجة نفسية، أو عقلية، أو جسدية. بحيث يجد في رحابها الراحة والطمأنينة والاستقرار، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر.

وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء هذه الحياة الجديدة.

هذا هو رباط الجنس في منهج القرآن، وهذه هي العلاقة الجنسية في قواعد الإسلام. والمتأمل في ذلك يجد أن منهج القرآن يختلف عن كل المناهج الأرضية في هذه المسألة.

فالجنس ليس تسافداً كتسافد الطيور على الأشجار، وليس تصارعاً على المرأة الجميلة في الحانات والأندية كما تتصارع فصائل الكلاب على الأنثى. وليس عملية تتم في الظلام بلا عقود أو شهود.

وإنما هو سكن يلجأ إليه الرجل، ليجد في أنسه الراحة، وفي قربه الأمن والاستقرار.

والهدوء والاطمئنان

وهو أولاً وأخيراً مودة ورحمة.

حتى ينشأ الأطفال ـ الزغب ـ في هذا الجو، جو الدفء، والحنان والرعاية.

والجنس في منهج القرآن أيضاً: وسيلة الإحصان والعفة، وسيلة الستر والوقاية. قال تعالى:

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (١٨٧)[١]﴾

لباس للستر والحفظ، يستر الجسد فلا ينكشف، ويستر العورة فلا تبين

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٧

ويستر عورات الإنسان ونتوءات جسمه.

يستر عيوبه الجسدية والخلقية والجنسية.

يستر جهله وطيشه وفلتات لسانه.

يستر ضعفه أو شرهه. وكل أسراره التي لا يحب أن تعرض.

ووقاية للرجل والمرأة عن التفكير في الفحشاء أو ارتكابها، وتلطيف لوقدة الشهوة، وتلمظ الرغبة.

كما يلطف الثوب الساتر أذى الهاجرة، وقسوة الزمهرير.

لهذا كان منهج القرآن يعمل على تشجيع الأفراد على الزواج ويحثهم عليه، ويصل في بعض هذه التوجيهات إلى درجة الأمر.

قال تعالى:

﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة(٣)**[١] ﴾

ويقرر أن لهم أجراً في ذلك، لا يقل عن أجره في أي عمل من أعمال الدنيا يؤديه

يقول الرسول - ﷺ: وفي بضع أحدكم صدقة»

قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر . . ؟

قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر. . ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر[٢]»

ومنهج القرآن يرفع الجنس إلى مستوى بعض العبادات. ففي حديث الرسول ﷺ:

(١) سورة النساء آية رقم ٣

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة باب بيان أن إسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ٥٣

﴿حبب إلي من دنياكم ثلاث.. الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة﴾.

والجنس في منهج القرآن: لا يتم إلا بعقد موثق ورضى وقبول.. وشهود يشهدون على هذا العقد.

فإذا تم على غير هذه الصورة فهو الفاحشة والمنكر قال تعالى:

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾[(١)]

يقول الأستاذ محمد قطب:

لأن هذه الفتاة التي تسلم في جسدها لرجل ليس بينها وبينه عقد موثق مثلها كمثل الحارث الذي يدعو الناس إلى سرقة المال الذي يحرسه.

فذلك لا يعطي الناس الحق في السرقة. لأن الحارث لا يملك المال في الحقيقة وهذه الفتاة الحارسة على عرضها لا تملك التصرف فيه، ولا دعوة الناس إلى اغتصابه، إنه ليس عرضها وحدها. ولكنه عرضها، وعرض والديها، وعرض أسرتها، وعرض مجتمعها، وعرض الإنسانية المسلمة.

إنه عرض الأمانة التي ائتمن الله عليها البشر، وينبغي أن يردوا الأمانة نظيفة، كما تلقوها كاملة ولا يسلموها إلا بحقها الذي نص عليه صاحب الحق.

وهذا الذي نقوله بالنسبة للفتاة نقوله للرجل، فالرجل لا يملك من عرضه شيئاً إلا بحقه.

فإذا انحرف الإنسان عن هذا المنهج وخرج عن هذا الطريق ـ كان الجزاء ومع ذلك يعترف بالضعف الإنساني. قال تعالى:

﴿ويريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً[(٢)]﴾.

---

(١) سورة النور آية رقم ٢

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٨

ويعامله على أساس هذا الضعف فيغفر له زلاته، ما دام لم يصر عليها قال تعالى:

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (١٣٥) أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين (١٣٦)[1] ﴾

(١) سورة آل عمران ١٣٥ ـ ١٣٦

٤

دافع التملك

التملك فطرة قوية لدى الإنسان، يقرر ذلك كل صاحب عقل سوي، ولا ينكرها إلا مكابر يماري في الحق ويجادل فيه.

ويقرر علماء النفس: أن الطفل يولد وفي طبيعته حب التملك.

يمتلك ثدي أمه ويرفض أن يشاركه فيه غيره.

ويستمر على ذلك فترة.

ثم تتسع تطلعاته. فيرى ملكه العريض، وكونه الكبير بين أبيه وأمه، ثم يحوز بعض اللعب. وبعض الحاجات الصغيرة.

يضن بها على أترابه، ويبخل بها على زملائه.

ويقاتلهم عليها ـ ويتحمل في سبيل ذلك اللكمات والضربات من أجل المحافظة عليها. ثم يكبر ويكبر معه هذا الدافع.

عندها يعمل على امتلاك الأرض والعقار.

ويحوز آلات القوة والسيطرة.

حتى وهو في قمة الثقافة والفكر.. يحس أنه في حاجة إلى امتلاك بعض الأفكار ويزهو على الآخرين. بما يحويه عقله من تجارب وآراء.

وقد ينحرف هذا الدافع: فيتطلع إلى تملك الأفراد وبعض الدول.

والقرآن الكريم يقرر أن الإنسان مفطور على حب الحيازة والضن بما يملك

قال تعالى:

﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً (١٠٠)[١] ﴾

فالتملك ليس في حقيقته رغبة طارئة على الإنسان كما ادعت الشيوعية، فعملت على إقامة المزارع للأطفال، وحرمتهم من ثدي الأم ومن حنان الأب.. ومع ذلك فعندما سمحوا لهؤلاء الأفراد بالخروج من المزرعة.. فوجئوا.. بأن كل فرد منهم يمتلك أشياء ويحافظ عليها، ويضن بها أن يراها أحد أو يشاركه فيها إنسان. وليس هو أمر خارجي يترك لأهواء النفوس، وجشع الأفراد كما أرادته الرأسمالية ولكنه دافع فطري. ككل الدوافع الإنسانية يحتاج إلى التنظيم والضبط.

ومنهج القرآن هو الوحيد بين النظم التي عرفتها البشرية، الذي استطاع أن ينظم هذا الدافع ليحقق به مصلحة الفرد المالك ومصلحة الجماعة التي تعيش معه.

والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهداً خاصاً لحيازة شيء معين من هذه الملكية، والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك، سواء كان هذا العمل صيداً قال تعالى:

﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩٦)[٢] ﴾

أو إحياء الأرض الموات من الأرض يقول الرسول ـ ﷺ: «عادي الأرض لله وللرسول، ثم لكم من بعد. فمن أحيا أرضاً فهي له، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين[٣]».

أو استخراج ما في باطن الأرض من المعادن قال تعالى:

---

(١) سورة الإسراء اية رقم ١٠٠

(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٦

(٣) رواه أبو يوسف في كتاب الخراج

﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض (٢٦٧)[١] ﴾

والكسب الذي يكون عن طريق البيع والشراء

والكسب يكون عن طريق الإجارة.

والكسب يكون عن طريق المشورة أو إبداء النصيحة.

والذي يخرج من باطن الأرض كثير ومتعدد، فهو لا يقف عند استخراج البترول ومنتجاته.

ولا المعادن وأنواعها، ولكنها تمتد إلى أشياء أخرى معروفة وأخرى لم تعرف بعد.

والتملك يكون أيضاً عن تصنيع المادة الخام قال تعالى:

﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (٢٥)[٢] ﴾

أو العمل بأجر للآخرين يقول الرسول ـ ﷺ:

«ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده». وقال تعالى:

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (١٠٥)[٣].

ويرفض منهج القرآن التملك عن طريق الوسائل التي لا يبذل فيها صاحبها جهداً أو يبذل ولكنها غير مشروعة.

كالربا، والاحتكار، والغصب والغش، والتحايل، ومال الخمر، أو الخنزير وأول مبدأ يقرره القرآن الكريم ـ بشأن الملكية الفردية: أن الفرد المالك أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة، والجماعة مستخلفة فيه عن الله الذي لا مالك لشيء سواه، قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٧

(٢) سورة الحديد آية ٢٥

(٣) سورة التوبة آية ١٠٥

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير [١] ﴾

ونعتقد أن مجرد إحساس الفرد أن ما في يديه عارية لأمد محدود ثم يستردها صاحبها الذي أعارها في الأجل المرسوم كفيل وحده أن يخفف من الشره والطمع في داخل النفس البشرية، ويبعدها عن الشح والحرص.

ويجعلها تترك التكالب المسعور في جمع المال.

ويملأها بالرضى بما يعطيها الله.

ويكسبها السماحة والجود بالموجود.

ويطمئن القلب فلا يضطرب.

ويقر الوجدان فلا يقلق.

وبناء على ذلك فلا تذهب حسرات على فائت، أو ضائع، قال تعالى:

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى (٧٧)[٢] ﴾

ولا يتحرق القلب سعاراً على المرموق المطلوب، ولا يتعالى صلفاً وغروراً بما أعطى:

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (٢٣)[٣].

فإذا أعطى الواحد من ماله شيئاً فإنما من مال الله أعطى، وإذا قدم حسنة فإنما هي قـرض لله يضاعفه قال تعالى:

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون (٢٤٥)[٤] ﴾

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٧

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٧

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٣

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٤٥

وإذا كان الموت والحياة بيد الله ، والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده ، يضاعفه أضعافاً كثيرة ، يضاعفه في الدنيا مالاً وبركة ، وسعادة وراحة .

ويضاعفه في الآخرة نعيماً ومتاعاً ، ورضى وقربى من الله .

٥

دافع الخوف والرجاء

الخوف: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة. كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن إمارة مظنونة أو معلومة.

وروى الترمذي عن عائشة: رضي الله عنها ـ قالت:

قلت يا رسول الله:

«الذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة[١] ﴾.

أهو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني..؟

قال: لا يا ابنة الصديق: ولكنه الرجل الذي يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه».

وقد ورد الخوف في القرآن الكريم على خمسة وجوه:

الأول: بمعنى القتل والهزيمة قال تعالى:

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (٨٣)[٢] ﴾

الثاني: بمعنى الحرب والقتال قال تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٦٠

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٣

﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد (١٩)[١] ﴾

إنهم الأدعياء الجبناء في كل عصر ومصر - يصور القرآن حالتهم عند: إحساسهم بالخطر وإشعال أوار الحرب، وبعد انتهائها - حيث لم يشاركوا فيها ولم يكن لهم أي جهد في إطفائها.

ففي **الحالة الأولى**: عند مجيء الخوف تدور أعينهم فلا تستقر، ويأخذ الخوف بمجامع نفوسهم - حتى يصبح هؤلاء الذين يكونون في النزع الأخير من الحياة في عداد الأموات ويخشى عليهم من مفارقة أرواحهم أجسادهم.

وفي **الحالة الثانية**: عندما يذهب الخوف وتضع الحرب أوزارها يخرجون من جحورهم وترتفع أصواتهم وتنتفخ أوداجهم . . وتتشدق ألسنتهم بالدعاوي الكاذبة من البلاء في القتال.

والتسابق في جليل الأعمال.

وإبراز الشجاعة والاستبسال.

الثالث: بمعنى العلم والدراية قال تعالى:

﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه(١٨٢)[٢] ﴾

أي علم

وقال تعالى: ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع (٣) ﴾[٣]

أي علمتم.

الرابع: بمعنى النقص قال تعالى:

﴿ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم (٤٧) ﴾[٤]

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ١٩

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٢

(٣) سورة النساء آية رقم ٣

(٤) سورة النحل آية رقم ٤٧

الخامس: بمعنى الرعب والخشية من العذاب والعقوبة قال تعالى:
﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون(١٦)** ﴾[١]

ترسم هذه الآية صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة ولكن هذه الجنوب لا تستجيب.

لا تستجيب لأن لها شغلاً عن المضاجع اللينة.

لها شغلاً عن الرقاد اللذيد الممتع.

شغلاً بربها والوقوف في حضرته، وبالتوجه إليه في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء.

الخوف من عذاب الله

والرجاء من رحمته.

والخوف من غضبه، والطمع في رجاه.

الخوف من معصيته والطمع في توفيقه.

والإنسان في حياته العامة والخاصة، الإنسان في العصر الحجري، والإنسان في عصر الذرة. يخاف أشياء ويخاف من أشياء، يخاف الموت، ويخاف على الرزق، ويخاف الأعداء. ويرجو أشياء ويتمنى مطالب.

ومنهج القرآن يعترف بدافع الخوف، ولكنه يضع الضوابط على الإحساس بالخوف، ويشعر الإنسان دائمًا أن كل قوى الأرض لا تخيف.

قوى الأرض لا تخيف، لأنها قوى مسخرة، لا تستمد قوتها من نفسها ولا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً.

والقوة الحقيقية التي يجب أن تخاف وترهب هي القوة التي بيدها كل شيء

القوة التي بيدها الأمر والنهي

القوة التي أوجدت الحياة والموت

---

(١) سورة السجدة آية رقم ١٦

القوة التي حددت الرزق والأجل.

هى قوة الله ـ سبحانه وتعالى. أو مما يخوف به الله.

ومنهج القرآن يوجه الإنسان المسلم للاعتماد على هذه القوة، قال تعالى:

﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد(٣٦) ﴾[١]

أليس الله بكاف عبده.. بلى فمن ذا في مقدوره أن يخيفه...؟ أيستطيع بشر أن يفعل ذلك ويخيف مَنْ؟ الله ـ سبحانه وتعالى ـ محال أن يحدث ذلك.

إنها قضية بسيطة واضحة لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن.

ويقرر القرآن أن الخوف وأسبابه من وسوسة الشيطان، وأن هؤلاء الذين يملأ الخوف قلوبهم هم أتباع الشيطان وأنصاره.

قال تعالى:

﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين(١٧٥)[٢] ﴾

يخوف أولياءه؛ وتحت ستار الخوف والرهبة. وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أتباعه في الأرض ما يقر عينه.

إنهم يقلبون المعروف منكراً والمنكر معروفاً

وينشرون الفساد والباطل والضلال.

ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل

ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير.

ومع ذلك إن كيد الشيطان ومكره أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته.

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٣٦

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥

إن القوة الوحيدة التي يجب أن تخشى وتخاف، هي القوة التي تملك النفع والضر، هي قوة الله.

وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله.

وهم حين يفعلون ذلك يكونون أقوى الأقوياء

أقوى الأقوياء. فلا تقف لهم قوة في الأرض

أقوى الأقوياء فلا ترهبهم قوة الشيطان ولا أولياء الشيطان.

وهناك حكمة تقول:

الذي يخاف الله فلا يخاف غيره. وهل هناك بعد قوة الله تعالى قوة تخاف..؟

أترى المؤمن يخاف ويرهب الموت والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت**[1] ﴾.

أم يخاف أن يعجل له في أجله والله تعالى يقول:

﴿ **لكل أجل كتاب**[2] ﴾

وإذا كان لا يخاف الموت ولا تعجيل الأجل أتراه يخاف على الرزق والله سبحانه وتعالى متكفل به قال تعالى:

﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض قل الله**[3] ﴾

ويقول الرسول ـ ﷺ:

«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً[4]»

وكمية الرزق وزيادته ونقصانه مقدر بيد من عنده خزائن الأرض والسماء قال تعالى:

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٥

(٢) سورة الرعد آية رقم ١٣٨

(٣) سورة سبأ آية رقم ٢٤

(٤) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد باب التوكل واليقين رقم ١٤.

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر[١] ﴾

أم يخاف الهزيمة وعدم الانتصار في معاركه التي يخوضها ضد أعداء الله وأعداء دينه. وهذا ليس من شأنه ولا في مقدوره أن يقدر نهاية المعركة أو على أي صفة تكون والله تعالى يقول:

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده..؟[٢] ﴾

لأن الجيش قد يدخل المعركة بكامل عدته وعدده، وقد أعد وهيأ أسباب الفوز ولكن النصر في النهاية هو من عند الله قال تعالى:

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (١٢٦)[٣] ﴾.

أيخاف نكبات الأيام وصروف الدهر والله تعالى يقول:

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[٤] ﴾.

أم يخاف المجهول. وما تأتي به صروف الأيام والليالي. وذلك غيب في علم الله تعالى:

﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً[٥] ﴾

أو يخاف مما يشعر به للوهلة الأولى أنه يكرهه ـ وينفر منه طبعه. قال تعالى:

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[٦] ﴾.

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٢٦

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٠

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٢٦.

(٤) سورة التوبة آية رقم ٥١

(٥) سورة الطلاق آية رقم ١

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢١٦

وهكذا يضع منهج القرآن أمام دافع الخوف. . هذه الضوابط الكثيرة التي نرى أنها طالت بعض الشيء. . ولكن نعتقد أن لنا عذراً في ذلك وهو ما نراه في هذا العصر الذي نعيش فيه ـ من الرياح السود التي تلف حياة الكثير من الناس وتملؤها بالخوف والرعب. . نرجو من الله السلامة.

٦

دافع الحب والكره

الحب والمحبة: هذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض ومنه حَبَب الأسنان لبياضها ونضارتها.

الثاني: العلو والظهور ومنه حبب الماء وحَبَابه وهو ما يعلوه من النفاخات عند المطر.

الثالث: اللزوم والثبات ومنه حب البعير وأحب إذا برك فلم يقم

الرابع: اللباب والخلوص ومنه حبة القلب لِلُبه وداخله

الخامس: الحفظ والإمساك.

والكره: على ضربين

أحدهما: ما يعافه الطبع

الثاني: ما يعافه العقل والشرع، ولهذا يصح أن يقال في الشيء الواحد أريده وأكرهه، قال تعالى:

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾

أي تكرهونه طبعاً، ثم قال:

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم[1] ﴾.

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٦.

والطفل يولد ويوجد في داخله دافع الحب والكره. وشيء في جبلته لا يستطيع منه فكاكاً.

فهو يحب الطعام والدفء والقرب من والديه.

ويكره الظلام وينفر من العقاب وكل ما يؤذي جسمه.

وجسم الإنسان كما يقول العلماء: مكون من ذرات العناصر التي يتكون منها طين الأرض، والتي تكاد تنحصر في الآتي:

مادة «الأكسجين» ومادة «الأيدروجين» ومادة الكربون والحديد والنحاس، والكلسيوم والزرنيخ والصوديوم والبوتاسيوم، والمغنسيوم. وإذا فكر عالم من علماء الكيمياء أو الطبيعة أن يضع هذه المواد في بوتقة الاختبار فإنه يلحظ تجاذب البعض وتنافر البعض الآخر.

كيف يتم التجاذب بين هذه العناصر أو التنافر. . ؟

يقول العلماء: إن علمهم لم يتوصل بعد إلى معرفة هذه الظاهرة. ولكن الذي يراقب قطعة الحديد الموضوعة أمام المغناطيس، يشاهد اهتزازها واضطرابها حتى تلتصق بالمغناطيس، وهذه الظاهرة، ظاهرة التجاذب بين الحديد والمغناطيس نشاهدها في حركات وأعمال نفس بشرية، حال انجذابها إلى نفس بشرية أخرى.

ولا تهدأ هذه النفس ولا تستقر حتى تلتصق بالأخرى في قوة

فإذا تم لها ما أرادت أبت أن تفارقها.

والذي يراقب قطبين متماثلين يلحظ كيف يهتز كلاهما في حركة نفور وتباعد وحركة النفور والتباعد هذه كما تتم في قطبين متماثلين

تتم أيضاً بين نفسين بشريتين.

ويعبر عن الظاهرة الأولى بدافع الحب والتجاذب.

ويعبر عن الظاهرة الثانية بدافع الكراهية والتنافر.

والحب والكره فطرة في النفس الإنسانية. . يتفق على ذلك الغرب المادي والشرق الإسلامي.

ولكن لماذا يحب إنسان إنساناً آخر..؟

ولماذا يكره إنسان إنساناً آخر ولا يستريح إليه..؟

في كثير من الحالات لا يجد الإنسان مبرراً للحب، ولا سبباً للكره أهناك تفسير لهذه الظاهرة..؟

أيستطيع علم المخابر والمعامل أن يقدم لنا تعليلاً لذلك..؟

إن علم النفس عرف شيئا وغابت عنه أشياء.

والفلسفة القديم منها والحديث.. ليس لديها جواباً شافياً لذلك إذن ماذا تفعل..؟

وأي المسالك نسلك..؟

أنلجأ إلى كتاب ربنا الذي هو تبيان لكل شيء..؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه:

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾

يحول بين المرء وقلبه، فيفصل بينه وبين قلبه

ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد، وصاحبه لا يملك منه شيئاً ـ وهو قلبه الذي بين جنبيه.

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم اليقظة لخلجات القلب وخفقاته.

والحذر من كل هاجسة فيه أو كل ميل.

والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس.

والتعلق الدائم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته.

والرسول ـ ﷺ ـ كان يكثر في دعائه من قوله:

«اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»

ويقرر الرسول ـ ﷺ:

«أن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء».

ومنهج القرآن لا يعارض هذا الحب والكره عند الإنسان ولكن ينظم الحب ويخفف من وقداته ويضع له الضوابط.

وينظم الكره ويحد من تجاوزه الحد حتى لا يتحول إلى أثرة وأنانية.

والمتتبع لآيات الكتاب العزيز يجد أنه يدعو الإنسان ـ خليفة الله في الأرض إلى محبة الكون والطبيعة فهما مخلوقان له، ومسخران من أجله قال تعالى:

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣) ﴾[١]

ويوجهه إلى محبة الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون، وخالق الإنسان في أحسن صورة قال تعالى:

﴿ وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير[٢] ﴾

ويوجهه أيضاً إلى محبة العدل لكل الناس العدو والصديق، القريب والبعيد قال تعالى:

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى[٣] ﴾

والعدل: خلاف الجور. يقال عدل في القضية فهو عادل. وفلان من أهل المعدلة أي من أهل العدل.

ويروى أن قاتل يزيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بعد إسلامه ـ وكان عمر يقسم الغنائم، فأشاح عمر عنه بوجهه. فقال له الرجل: أتكرهني يا عمر..؟

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣
(٢) آية التغابن آية رقم ٣
(٣) سورة المائدة آية رقم ٨

قال عمر: نعم كما تكره الأرض الدم.

قال إذن: أنت مانعي حقي.

قال عمر: أما هذه فلا.

فقال الرجل: إذن لا أعبأ بحبك ولا بكرهك، إنما يأسى على الحب النساء.

ويوجه منهج القرآن المسلم إلى محبة البشرية قاطبة.

البشرية المؤمنة التي تشاركه في عقيدة التوحيد والإيمان بالله. قال تعالى:

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم (١٠)[١] ﴾

فإذا فعل المسلم ذلك والتزم به، وأصبح له سلوكاً ومنهجاً طالبه، المنهج بشيء آخر، ووجهه وجهة ثانية وهي كراهة الشر بجميع صوره وأشكاله. والذي يتمثل فيما يدعو إليه الشيطان.

قال تعالى:

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور(٥) إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(٦)[٢] ﴾

الشيطان قد أعلن عداءه للإنسان، وأصر على هذا العداء، والواجب على البشر أن يبادلوه عداء بعداء.

فلا يركنوا إليه، ولا يتخذوه ناصحاً أو صديقاً، لا يتبعوا خطاه.

والعدو لا يتبع خطا عدوه وهو يعقل، أو لديه أثارة من عقل.

وطالبه المنهج أيضاً بكراهية الظلم والبغي قال تعالى:

﴿ إنه لا يفلح الظالمون[٣] ﴾

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٠

(٢) سورة فاطر آية رقم ٥ - ٦

(٣) سورة الأنعام آية ٢١

﴿ والكافرون هم الظالمون[١] ﴾.

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم (٢٣)[٢] ﴾

ويكرهه في العدوان والمعتدين قال تعالى:

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(١٩٠)[٣] ﴾

وقال أيضاً:

﴿ ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى(٢٠) ﴾[٤]

ويكرهه في الفتنة وأسبابها وظروفها وملابساتها قال تعالى:

﴿ والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ١٩١ ﴾[٥].

يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب: إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية، ومن ثم فهي أشد من القتل.

أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة.

ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.

وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٤

(٢) سورة يونس آية رقم ٢٣

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٩٠

(٤) سورة المائدة آية رقم ٢

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٩١

تعليم الإلحاد، ويسن تشريعات تبيح المحرمات كالزنا والخمر، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه، بينما يقبح لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله. ويجعل من هذه الأوضاع فروضاً حتمية لا يملك الناس التفلت منها[1] ﴾

ويكرّه له الإفساد في الأرض.

الإفساد بين الأوفياء.

والإفساد بين الخلصاء.

والإفساد في الفكر والثقافة.

والإفساد في المعرفة.

والإفساد: بتدمير كل أخضر ويانع، وتحطيم كل نافع ومفيد، قال تعالى: **﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين (٥٥) ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين (٥٦)[2] ﴾**

ويكره له الفواحش جملة:

والفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال أو ما تجاوز الحد.

فقتل النفس وإزهاق روح بغير حق فاحشة.

وأكل مال اليتيم وتبديده على ملذات الوصي ورغباته فاحشة.

والتبرج والتهتك والاختلاط المثير فاحشة

والكلمات التي لا تدل على براءة قائلها والإشارات والحركات لا يبغي بها وجه الله فاحشة.

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١ ص ٢٧٢

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ ـ ٥٦

والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزين لإثارة الآخرين فاحشة.

قال تعالى:

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن (١٥١)[١]﴾

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١

من وسائل التربية:

١ - التربية بالموعظة

٢ - التربية بالقصة

٣ - التربية بالأحداث

٤ - التربية بالعقوبة

١

التربية بالموعظة

القرآن الكريم: كتاب موعظة وهداية.. وكتاب حكمة وبيان، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً خالداً يرشد البشرية ويهديها سواء السبيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى:

﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (١٣٨)[1] ﴾

فهذا الكتاب يهدي المتقين يوضح لهم الطريق، ويبين لهم المسالك.. أما غيرهم الذين طبع الله على قلوبهم، وغشى على أبصارهم - فهم في ظلام دائم وضلال مستمر. قال تعالى:

﴿ ألم.ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(١)[2] ﴾

ورسل الله - صلوات الله عليهم جميعاً جاءوا بالهداية، وجاءوا بالموعظة قال تعالى:

﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن

---

(١) آل عمران آية رقم ١٣٨

(٢) سورة البقرة آية رقم ١

من الشاكرين (١٤٤) وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء(١٤٥)[1] ﴾

لأن الموعظة دائما تحتاج إليها النفس ويطمئن لها القلب، وخصوصاً إذا كانت صادرة من قلب مخلص، ومن نفس صافية شفافة.

والقرآن الكريم جاء به الرسول الأمين. فبهر علماء البلاغة، وأخرس ألسنة الفصحاء لما فيه من حكم ومواعظ.. قال تعالى:

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما. محسورا(٢٩) إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا(٣٠) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً (٣١) ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق(٣٢)[2] ﴾

ويقدم القرآن لأتباعه من خلال منهج التربية مجموعة من المواعظ التي تدعو إلى تهذيب النفس وتطهيرها من ذلك دعوته إلى:

١ ـ طهارة النفس

قال تعالى:

﴿ ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها(١٠)[3] ﴾.

وقال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٥

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٢٨ ـ ٣٢

(٣) سورة الشمس آية من ٧ ـ ١٠

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم، إلى قوله تعالى:

﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩)[1] ﴾

وقال تعالى: ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣)[2] ﴾

فتزكية النفس وتطهيرها في الآية الأولى حتى لا يبقى فيها من أمراضها شيء.. فتشيع المحبة في المجتمع وتجمل الحياة بنبلها وسلامة أخلاقها ـ هدف من أهداف التربية الإسلامية.

.. وسلامة القلب.. حتى يحب لله وفي الله ـ ونزع ما فيه من حظ الشيطان من وسوسة تبعد عن الحق، وشكوك تقرب من الباطل هدف آخر من أهداف التربية الإسلامية.

.. وتذكير الإنسان بخالقه، حتى يؤوب إلى ربه، ويحفظ أوامره ونواهيه ويخشاه في السر والجهر، في الليل والنهار، في الحضور والغيبة، حتى يعود في النهاية بقلب منيب، فيوصفون بهذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوّابون، حفيظون. يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إليه طائعون.

٢ ـ الاستقامة

قال تعالى:

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه (٦)[3] ﴾

(١) سورة الشعراء آية ٨٩

(٢) سورة ق آية من ٣١ ـ ٣٣

(٣) سورة فصلت آية رقم ٦

وقال تعالى: ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك (١٢١)[١] ﴾

ومنهج التربية يطالب المسلم بالاستقامة . . وهو أن يكون معتدلاً، يمضي على النهج دون انحراف.

والاستقامة: في حاجة الى اليقظة الدائمة، والتدبر الدائم، والتحري لحدود الله. وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً. ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة.

وإنه لما يستحق الانتباه أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير.

إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة.

وذلك أن الأمر بالاستقامة قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة، التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله.

ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو.

وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء.

وقد وردت الاستقامة في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى تبليغ الرسالة، قال تعالى:

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ فادع واستقم[٢]. »

الثاني: بمعنى الدعاء والدعوة: قال تعالى:

(١) سورة هود آية رقم ١١٢
(٢) سورة الشورى آية ١٥

﴿ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما[1] . ﴾

الثالث: بمعنى الثبات على التوحيد والشهادة قال تعالى:

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا[2] . ﴾

يقول: صاحب القاموس المحيط: والاستقامة: تقال في الطريق الذي يكون على خط مستقيم،وبه شُبه طريق الحق قال تعالى: ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** . ﴾ واستقامة الإنسان: لزومه للمنهج المستقيم.

٣ ـ العفة ـ الاحتشام ـ غض البصر

قال تعالى:

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن، أو أبناء بعولتهن، أو إخوانهن أو بني إخوانهنَّ، أو بني أخواتهن، أو نسائهن، أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن (٣١)[3] ﴾

يقول المرحوم سيد قطب:

إن منهج التربية في الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات الدم واللحم في كل حين، فعمليات

---

(١) سورة يونس آية رقم ٨٩

(٢) سورة فصلت ٣٠ والأحقاف آية ١٣

(٣) سورة النور آية رقم ٣١

الأستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفىء ولا يرتوي.

والنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري، كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون، وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة.

فأما الإفضاء الفوضوى الذي لا يتقيد بقيد، وأما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، فهي تكاد تكون عملية تعذيب. وإحدى وسائل الإسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليمًا. وبقوته الطبعية، دون استثارة مصطنعة، وتصريفه في موضعه المأمون النظيف. وغض البصر من جانب الرجل أدب نفس، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم.

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة. ويقظة الرقابة والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى.

﴿ ذلك أزكي لهم ﴾

فهو أطهر لمشاعرهم، وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط، وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها.

والله هو الذي يأخذهم بهذه الرقابة، وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم(١).

---

(١) في ظلال القرآن المجلد جـ ٦ ص بتصرف

﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾.

وقال تعالى:

﴿ قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧)[١] ﴾

إن منهج التربية يطالب الجماعة المسلمة بطهارة البيت والجماعة، بطهارة النفس والأسرة والمجتمع. ويطالب بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال. وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب. ومن فساد البيوت. حتى لا يتحول من فيها إلى حيوانات هابطة تلتقي الأنثى فيه بالذكر بدافع اللقاح، واللقاح فقط ثم لا يعرف الطفل ثمرة ذلك كيف جاء ولا من أين جاء..؟؟

٤ ـ التحكم في الأهواء

قال تعالى:

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى[٢] ﴾

وقال أيضاً: **﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾.**

وقال: **﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾**[٣].

---

(١) سورة المؤمنون آيات من ١ ـ ٧

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٤٠

(٣) سورة النساء آية رقم ١٣٥

والهوى ميل النفس إلى الشهوة. وقد عظم الله ذم اتباع الهوى في قوله تعالى ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**[١] ﴾.

وقوله: ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم**[٢] ﴾.

واتباع الهوى نهاية الضلال قال تعالى:

﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**[٣] ﴾.

٥ ـ كظم الغيظ

قال تعالى: ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (١٣٤)**[٤] ﴾

الغيظ: الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه قال تعالى: ﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾[٥].

وقد دعا الله سبحانه وتعالى العباد إلى إمساك النفس عند حصوله قال تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾.

والغيظ: انفعال بشري، تصاحبه أو تلاحقه فورة الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشري، وإحدى ضروراته وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى.

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٣

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠

(٣) سورة القصص آية رقم ٥٠

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣٤

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١١٩

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى: وهي وحدها لا تكفي فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويمتلىء قلبه بالضغينة. فيتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين.

ولكن منهج القرآن يطالب المسلمين بالصفح والعفو والإحسان، فهي مراحل ثلاث:

الأولى: أن يكظم الإنسان غيظه، وأن يتحكم في إرادته ـ ونفسه، حتى لا تطيش بها الأهواء، أو يذهب الغيظ بها كل مذهب.

الثانية: الصفح والعفو: فلا يبقى في النفس شـيء. . ويتحول ما في داخلها من غضب وغيظ إلى سماحة ويسر، ونقاء وطهر يسع الناس جميعاً الصالح والطالح. الذكي والغبي. المستقيم والفاسد.

الثالثة: الإحسان إلى هؤلاء والتودد إليهم ـ والتجاوز عن سيئاتهم قال تعالى:

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر[1] ﴾.

فهو يكظم غيظه عما يأتونه من أفعال لا يصرون عليها بل يتوبون ويستغفرون ثم يعفو عنهم. ثم يستغفر لهم. ويشاركهم في أمره، ويكل لهم تحمل التبعة معه ـ ولهذا كان وصف ربه له بقوله:

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم[2] ﴾.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩

(٢) سورة القلم آية رقم ٤

٦ ـ الصدق

قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[١] ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾[٢].

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون[٣] ﴾

والصدق: مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً.

والصَديق: الرجل الكثير الصدق.. أو الذي صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه. قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام:

﴿ إنه كان صديقا نبياً[٤] ﴾.

وقال: ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين[٥] ﴾.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين وخصص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقال:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾.

وقال:

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[٦] ﴾

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٩

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣٣

(٤) سورة مريم آية رقم ٤١

(٥) سورة النساء آية رقم ٦٩

(٦) سورة النساء آية رقم ٦٩

فمنهج القرآن يربي أتباعه على الصدق.

لأن المؤمن شجاع لا ترهبه قوى الأرض مجتمعة.

فهو لا يجبن، وليس لديه ما يخفيه أو يستره.

لأن المؤمن واضح كالنهار.

فيه صفاء الأزهار وطهارة الأمواج، فلا يعرف الكذب ولا يأتيه.

ومما رواه الإمام الترمذي:

«الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

وفي الصحيحين: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[1]».

٧ ـ الرقة والتواضع

قال تعالى:

﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧) ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١٩)[2] ﴾.

إن هذه الآيات وما قبلها تعد دستوراً للمسلم في يومه وليله، بل في حياته

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) سورة لقمان آية رقم ـ ١٧ ـ ١٩

كلها إذا وعاها، وتشربها قلبه، وعاشت في وجدانه. . فحركت أعماله ونظمت أقواله، وهل يطلب منهج القرآن من المسلمين غير ما تضمنته هذه الآيات. . ؟

إنها تطالبه بتوحيد خالقه والانضباط على حقيقة التوحيد، فلا يشرك مع خالقه غيره: من هوى أو شجر أو حجر. أو بشر.

مع التوحيد الخالص تطالبه بالإحسان لوالديه ـ جزاء ما قدما له في طفولته من عناية ورعاية. وما سبق ذلك من حمل ورضاعة. وغير ذلك مما يقوم به الوالدان إزاء أبنائهما.

فإذا شب عن الطوق. . وعرف ما يأتي وما يدع. . طالبه بالصلاة وأدائها في أوقاتها المعلومة، حتى يكون العبد دائمًا على صلة بخالقه ورازقه الصحة وأسباب الحياة.

. . وهو يعيش في مجتمع ترتبط فيه الأمور، وتتشابك فيه أعمال الناس، وتطل من على صفحته أهواء الناس ورغباتهم. فلا بد أن يساهم في إصلاح المجتمع. بأمره بالمعروف وتشجيع العاملين به.

ونهيه عن المنكر. والوقوف في وجه المتبجحين به. .

فإذا فعل ذلك نهاه عن أن يصعِّر خده للناس، وأن يتكبر عليهم أو أن يمشي في الأرض مرحاً في تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة كريهة يمقتها الله، ويمقتها الخلق.

ومع النهي عن مشية المرح، بيان عن المشية المعتدلة القاصدة «واقصد في مشيك» والقصد: الاعتدال وعدم الإسراف ومجاوزة الحد، وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال. . . والمشية القاصدة لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق.

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث

وقوته وما يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة.

٨ ـ اجتناب سوء الظن

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم**[١] ﴾.

وقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعلمون خبيرا**[٢] ﴾.

والظن: علم يحصل من مجرد إمارة، ومتى قويت أدت الى العلم، ومتى ضعفت جداً لم تتجاوز حد التوهم.

وقد ورد الظن في القرآن الكريم مجملاً على أربعة أوجه.

الأول: بمعنى اليقين:

قال تعالى: ﴿ **يظنون أنهم ملاقوا ربهم**[٣] ﴾.

وقوله: ﴿ **إني ظننت أني ملاق حسابيه**[٤] ﴾.

وقوله: ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه**[٥] ﴾.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٤

(٣) سورة البقرة آية ٤٦

(٤) سورة الحاقة آية ٢٠

(٥) سورة التوبة آية رقم ١١٨

وقوله: ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله [١] ﴾.

والثاني: بمعنى الشك والتهمة.

قال تعالى: ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ [٢] ﴾.

وقوله: ﴿ ولقد صدَّق عليهم أبليس ظنه [٣] ﴾.

وقوله: ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية [٤] ﴾.

إن منهج التربية في القرآن يحرص على عدم تلويث ضمير الأفراد بالظن السيء فيقع في الإثم بل يطالبه بالترفع عن الهواجس والظنون، يكن لأخوانه في المجتمع الذي يعيش فيه المودة التي لا يخدشها ظن السوء.

والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك.

والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع.

وما أجمل الحياة في مجتمع برىء من الظنون.

والمجتمع الإسلامي بعامة لا يؤخذ أفراده بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصح الظن أساساً لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساساً للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. والرسول ﷺ يقول:

«إذا ظننت فلا تحقق».

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٠
(٢) سورة الحج آية ١٢
(٣) سورة سبأ آية ٢٠
(٤) سورة آل عمران آية ١٥٤

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم، وحرياتهم واعتبارهم حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم. إن الله تعالى يقول:

﴿ ولا تجسسوا ﴾.

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العلم الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم.

في المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر مهما يكن لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات.

فالناس على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم[1].

قال أبو داود بسنده عن ابن وهب قال: أتى ابن مسعود فقيل له:

هذا فلان تقطر لحيته خمراً.

فقال: عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به
وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة:

«إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم».

قال: لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢٦ ص ١٣٨

قال: ففعل فلم ينتهوا.

قال: فجاءه دجين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم

فقال له عقبة: ويحك لا تفعل فإني سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مؤودة من قبرها[١]».

٩ ـ الثبات والصبر

حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان.

وهو في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾. **البقرة آية ١٥٣**.

الثاني: النهي عن ضده قال تعالى: ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾ سورة الأحقاف آية ٣٥

الثالث: الثناء على أهله كقوله تعالى: ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾.(**سورة آل عمران آية رقم ١٧**)

(١) رواه أبو داود والنسائي من حديث الليث ابن سعيد.

وقوله تعالى: ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾(سورة البقرة آية رقم ١٧٧)

الرابع: إعلان البشرى لأهل الصبر قال تعالى: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين». سورة البقرة آية رقم ١٥٥

الخامس: ضمان النصر والمدد لهم. قال تعالى: ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾. (سورة آل عمران آية رقم ١٢٥)

السادس: الإخبار أنه ما يُلقى الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر قال تعالى:

﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[١].

السابع: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر قال تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[٢] ﴾.

الثامن: الإخبار بأن الفوز بالمطلوب، والنجاة من الموهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر قال تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[٣] ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩٦
(٢) سورة إبراهيم آية رقم ٥
(٣) سورة الرعد آية رقم ٢٣

إن منهج التربية في القرآن يضع للمسلم في رحلة الحياة الطويلة الشاقة أسس الصبر ومقوماته . . ويطالبه بمعالجة النفس وتدريبها على تحمل الصبر وتبعاته . إن المسلم في منهج القرآن يصبر على النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها .

يصبر على ضعفها ونقصها .

يصبر على عجلها وملالها .

يصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم .

يصبر على انحراف طبائعهم وأثرتهم وغرورهم والتواءاتهم .

يصبر المسلم على تطاول الباطل . ويعتقد أن لتطاوله نهاية .

ويصبر المسلم على وقاحة الطغيان وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة .

يصبر المسلم على قلة الناصر، وضعف المعين .

يصبر على طول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق .

والصبر على ضبط النفس في ساعة القدرة، والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر للخالق المنعم .

والصبر: على فرحة النصر، وقوة الظفر على الأعداء بلا اندفاع يدل على الغرور أو شهوة في الانتقام يتجاوز بها الحدود .

ولقد نجح منهج التربية نجاحاً منقطع النظير في تربية أجيال متتابعة، التزموا نهجه، وساروا على قواعده . . فوعتهم ذاكرة التاريخ، وسجلوا على جبهته بأحرف من نور. عن خباب بن الأرت ـ رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا:

«ألا تستنصر لنا . . ؟

ألا تدعو لنا . . ؟

فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها ثم يؤتي بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه.

والله ليتمنّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال:

«كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي أن نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه ـ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

وبهذا الزاد من الصبر الذي قدمه القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ صنع أمة وقامت دولة،وارتفعت كلمة التوحيد في جنبات الأرض. ليس هذا فحسب ولكن هناك المطالبة بالاعتدال:

قال تعالى: ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً** (١١٠)[1] ﴾.

وقال أيضاً: ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً إلى قوله: ﴾. ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** (٢٩)[2].

والمطالبة: بالأعمال الصالحة: قال تعالى:

(١) سورة الإسراء آية ١١٠

(٢) سورة الفرقان آية ٦٧

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٧)[(١)] ﴾.

وقال تعالى: ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٢)[(٢)] ﴾.

وذلك قليل من كثير مما حواه كتاب الله تعالى.. ليكون منهجه متكاملاً لأن واضعه هو صانع الجهاز الآدمي فلا بد أن يكون متوافقاً مع طبائعه ورغباته، حاوياً لحاجاته ومتطلباته قال تعالى:

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[(٣)] ﴾.

---

(١) سورة هود آية ٧
(٢) سورة الملك آية ٢
(٣) سورة الملك آية ١٤

٢

التربية بالقصة

القصة: إحدى عوامل التربية في القديم والحديث. وكل رجال التربية لا ينكرون ما للقصة من آثار في نفوس السامعين. . والقصة. . قديمة نشأت مع نشأة الإنسان وتابعته في حياته الأولى ـ وإن كانت تختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى.

وكل أمة من الأمم لها تاريخها الحافل بالقصة، التي تسجل الأحداث وتوجدها إن لم تكن موجودة.

وفي العصر الراهن: تلجأ بعض وسائل الإعلام في كثير من الدول إذا رغبت في تكوين رأي عام عند الشعوب إلى الاستعانة بالقصة وأشكالها وألوانها وما يكون فيها من مواقف ومفاجآت.

فتنجح حيث تخفق الوسائل الأخرى. . بل إن الكثير من المذاهب كانت مطمورة لا يسمع بها أحد، وجافة لا يقبل عليها إنسان. حتى قدمت في قصص وروايات فأقبل عليها العامة، وتهافت عليها الناس. وأصبحت في فترة قصيرة من الفترات. شغل الناس الشاغل. ونعني بها الوجودية ـ التي نقلها سارتر من نظريات فلسفية وألغاز وطلاسم كلامية إلى شـيء مشوق ومقبول ـ عن أتباعه والمنبهرين بآرائه ـ وإن كان في الحقيقة ليس فيها ما يسر أو يشوق.

والقصص: الأخبار المتتابعة قال تعالى:

﴿ إن هذا لهو القصص الحق[١] ﴾

والقرآن الكريم فيه مجموعة من القصص ـ جاءت لأمور جوهرية أرادها الله سبحانه وتعالى ومن أولى هذه الأمور تربية الأمة الإسلامية وتنشئة هذا الجيل الذي نزل في عهده القرآن ـ وما يأتي بعده من أجيال ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ على عظائم الأمور واطراح سفسافها من ذلك.. قصة يوسف عليه السلام الذي يقول الله تعالى فيها:

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين (٧) إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين (٨) اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين (٩)[٢] ﴾.

لقد ابتلي يوسف عليه السلام وعانى صنوفاً من هذه الابتلاءات، وعاش فترة من حياته في محن متلاحقة.

لقد كانت محنته الأولى مع أقرب الناس إليه مع إخوته: الذين كانوا يحقدون عليه ـ فكادوا له كيداً. حتى تخلصوا منه بإلقائه في الجب ـ بعد أن أجمعوا أمرهم على قتله.

وكانت محنته الثانية ـ في هذا الجب مع الظلام الموحش، والوحدة القاتلة والعذاب الذي لا يقف عند حد.

ثم كانت الثالثة: عندما وقع أسيراً في أيدي مجموعة من التجار يتبادلون بيعه، ويعرضونه في الأسواق كما تعرض السلع تسلم في النهاية ـ لصاحب الثمن الأكبر.

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٢

(٢) سورة يوسف آيات ٧ ـ ٨ ـ ٩

ثم أراد الله سبحانه وتعالى لعبده أن يستقر ولرسوله ـ أن يهدأ حتى يتهيأ للرسالة التي ستناط به ـ ويقوم بتكاليفها بعد حين قال تعالى:

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢١)[١] ﴾.

وعاش فترة في رخاء ونعيم، ثم عادت المحن مرة أخرى، وعادت الابتلاءات ابتلاءات الإغراء والشهوة والفتنة.

ابتلاءات امرأة العزيز التي تراوده وتريده.

وهي امرأة ذات جمال وسلطان.

وهي امرأة مترفة لا تعرف المستحيل ولا يمكن أن يستعصى أمامها هذا الغلام فإذا امتنع وتأبى.

إذا رفض ما تعرضه عليه وما تريده منه.

﴿ ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) ﴾[٢]

أيترك الفراش الوثير. . والنعيم المقيم، ليعود الى السجن. . ؟ محال أن يفعل ذلك. ولا بد من خضوعه واستسلامه وتنفيذ ما آمره به ـ هكذا كانت المرأة تتصور أن يوسف سيعود إليها راضياً راغباً.

ولكن رد يوسف في ذلك كان حازماً وقاطعاً. ويصور القرآن الكريم رد يوسف في ذلك بقوله: **﴿ قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف**

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢١

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٢.

عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين[١] ﴾.

إن يوسف يلتجيء إلى مولاه ويطلب من خالقه أن يخلصه مما هو فيه. لقد أنقذه من القتل، وخلصه من الجب، ليعدَّه لمهمة أكبر ويهيئه لحمل رسالته لهداية البشرية، واستنقاذها مما تتردى فيه. فهل يتركه في هذه المرة للعذاب والابتلاء..؟ محال أن يكون ذلك. وهو القائل: ادعوني أستجب لكم ـ وهذا ما حدث، استجاب له ربه فأنقذه من كربه ومما يعاني فيه قال تعالى:

﴿ **فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم (٣٤)**[٢] ﴾.

ليس هذا فحسب، ولكن لا بد من أن يحظى بالعناية ويثيبه الله سبحانه وتعالى مكافأة له على صبره وتحمله، وجزاء له ـ على مراعاته حدود الله وعدم تعديها ومن يكون كذلك له النعيم في الدنيا والتمكين فيها والثواب في الآخرة.

قال تعالى:

﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (٥٦) ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٧)**[٣].

مكنا ليوسف في الأرض، وثبتنا قدميه، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً،

والأرض هي مصر، أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها، يتبوأ منها حيث يشاء.

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣
(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٤
(٣) سورة يوسف آية رقم ٥٧

يتخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد في مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود.

نصيب برحمتنا من نشاء.

فنبدله من العسر يسراً.

ومن الضيق فرجاً.

ومن الخوف أمناً.

ومن القيد حرية.

ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً علياً.

ولا نضيع أجر المحسنين»

الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل، والتصرف مع الناس. هذا في الدنيا.

كما قال تعالى:

﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (١٠٥)**[١]

ونقول: إن عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها ليس وحده هو المقصود ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان.

حتى يحقق المطلوب منه وهو خلافة الله في الأرض.

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥

ويرتفع بإيمانه وذاته. فلا ينتكس حيواناً في وسط هذا التطور المادي، ولا يهبط إلى الدرك الأسفل بإنسانيته. في حين يرتفع إلى الأوج الأعلى في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن قد تختلط الأمور وتتباين الطرق.

وقد يستولى على الأرض جبارون وظلمة وطغاة.

وقد يغلب عليها مجموعة من الهمج والبرابرة والغزاة.

وقد يغلب عليها كفار لا يؤمنون بإله ولا يصدقون بنبوة نبي. ومع ذلك يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالاً مادياً.

ولكن ليست هذه النهاية. بل مراحل في الطريق. ثم يأتي وعد الله سبحانه وتعالى وتكون وراثة الأرض للعباد الصالحين.

الذين يعمرون الأرض وقلوبهم مرتبطة بخالق السموات.

الذين يسيرون على الأرض وإيمانهم يفجر ما فيها من كنوز.

وهذا ما حدث مع يوسف عليه السلام. وما يحدث لكل إنسان يقيم شرع الله على نفسه حتى ولو لم يقم في دنيا الناس. حتى كانت النهاية ما قاله يوسف عليه السلام من شكر نعمة الله على تمكينه في الأرض ـ وجمعه مع إخوته وأبويه، وجعل مقاليد الحكم بيده ليصرف بها أمور الأفراد بما وهبه الله سبحانه وتعالى من العلم والحفظ

قال تعالى:

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض، أنت وليِّ في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين (١٠١)[١] ﴾.

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠١

«رب قد آتيتني من الملك»

آتيتني منه سلطانه ومكانته وجاهه وماله. فذلك من نعمة الدنيا.

«وعلمتني من تأويل الأحاديث»

بإدراك مآلاتها، وتعبير رؤاها فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربي أذكرها وأعددها.

«فاطر السموات والأرض»

بكلمتك خلقتها، وبيدك أمرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها.

أنت وليِّ في الدنيا والآخرة»

فأنت الناصر والمعين.

رب تلك نعمتك وهذه قدرتك.

رب إني لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً، رب إني أسألك ما هو أبقى وأغنى: توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان.

وتتوارى فرحة اللقاء، واجتماع الأهل ولمة الإخوان.

ويبدأ المشهد الأخير، مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين بين يديه.. (١)

لقد نزلت قصة يوسف على رسول الله ﷺ في مرحلة حرجة في عام الحزن الذي مات فيه أبو طالب.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب جـ ١٣ ص ٤٩

أبو طالب: الذي وقف في وجه قريش ونصر ابن أخيه وقال لقريش عندما قالوا له نعطيك أنهد فتى في قريش فتتخذه ولياً وتسلم لنا ابن أخيك.

«والله لبئس ما تسومونني!! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه..؟

هذا والله مالا يكون أبداً[1].

وماتت خديجة التي قالت للرسول ﷺ عندما نزل عليه الوحي.

«أبشر يا ابن عم واثبت.

فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[2]».

وفيها عرض الرسول ﷺ نفسه على ثقيف فأغروا به سفهاءهم فألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فجلس إلى ظل شجرة وقال:

«اللهم يا أرحم الراحمين، إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين.

أنت رب المستضعفين وأنت ربي.

إلى من تكلني..؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.

ولكن عاقبتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك[3].

ونزلت هذه القصة والرسول ﷺ يهاجم من الكفار، ويغرى به الصغار، ويتنكر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٩

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٦

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٩١ - ٩٢

له الناس. ويفقد في عام واحد القلب الحنون الذي يواسي ويعطف، والعم البار الذي يقف في وجه المعاندين المكابرين ـ بالكلمة الطيبة مرة، وبزجرهم وتهديدهم في أكثر المرات. .

فكانت قصة يوسف تسلية للرسول.

وعبرة لهؤلاء الذين يضيقون بتقلبات الليالي وصروف الأيام.

. . إن كل إنسان قد يكون يوسف في نفسه.

ينزل به ما نزل بهذا النبي الكريم.

لقد عانى يوسف عليه السلام الشيء الكثير من حقد الذين يحيطون به ويشاركونه هذه الحياة. .

ومن منا لم يحدث له ذلك.؟

ومن منا لم يحسده الناس ويضيقون بتكريم الله له، وإسباغ نعمه عليه. .؟

من منا لم يزرع له الشوك في الطريق. .؟

وقد تستمر هذه الأشياء فترة طويلة. . وقد يتمكن الحاسدون والحاقدون من الشخص المحسود بينهم فيصيبون منه مقتلاً. .

فإذا كان يوسف قد ألقى في غيابات البئر، وانقطع عن دنيا الناس، وابتعد عن أسباب الرزق، وظن الذين قد فعلوا به ذلك، أنه أصبح في عداد الأموات والمفقودين إذا بعناية الله تلحظه، وبرعايته ترعاه. .

وإذا بالكيد يتحول إلى هباء.

والمكر البشري يذهب شعاعاً.

وتظهر رحمة الله سبحانه وتعالى فتطبب الجروح. . وتعالج النفوس. . وتضاعف لهذا المظلوم الأجر والمثوبة. .

.. شريطة ألا يأخذ بلبه الهول، أو ينحرف عن خط الله المستقيم الذي رسمه الله لعباده.

إن الإيمان شرط للنجاة من أحابيل الناس ومكرهم
ومراعاة حدود الله في السر والجهر مرفأ للأمان وشاطىء للاستقرار
إن أتباع الشيطان مهما أوتوا من قوة وتسلحوا بأسلحة، فهم أضعف بكثير من أن يقدموا ضراً أو نفعاً. أو أن يجعلوا المسلم بإسلامه، والمؤمن بإيمانه ينحرف عن الطريق الحق.. أو يسلك مسالك الظالمين لأنفسهم المبتعدين عن شرع الله.

وقد يبتلى الإنسان في نفسه فتركبه العلل والأمراض وقد يبتلى في رزقه فتضيق عليه الأرض بما رحبت
وقد يبتلى في أهله وولده.. فيغريهم الشيطان ويتبعون أهواءهم
.. وقد يبتلى بكثرة الرزق وإقبال الدنيا وكثرة خيراتها
قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة[1]﴾
وقد يبتلى بامرأة ذات منصب وجمال.. تريده عن نفسه، وتزين له الفاحشة وتلقاه في صورة شيطان.. أعد كل أسلحته للإجهاز على فريسته.. أو تهدده بمالها وجاهها.. في رزقه ومستقبله
فإن قاوم نفسه وجاهد هواه.
وصمد وصبر أمام هذه المغريات.
وصارع الشيطان حتى صرعه.
عندها: سيكون جزاؤه جزاء يوسف.. التمكين في الأرض، والعلم بسياسة الأمم ويكني بالحافظ الذاكر..

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٣٥

فإذا تم ذلك له . . لجأ إلى ربه ضارعاً تائباً شاكراً عابداً يردد ما ردده يوسف عليه السلام .

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾[1] .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠١

٣

التربية بالأحداث

هل يمكن أن تربى النفوس عن طريق الحادثة . . ؟

إن رجال التربية لا يمارون في ذلك . .

ولكن كيف؟ وما هي الوسيلة لتربية الأفراد والمجتمعات عن طريق الحادثة . . ؟ أيصطنع رجال التربية الحوادث حتى يستطيعوا من خلالها مزاولة نشاطهم وتربية أتباعهم . . ؟

الحقيقة أن الأمر أبسط من ذلك . . وأن الحوادث وملابساتها تحيط بالإنسان من كل جانب . . وأن أمور الناس في الغالب لا تسير رخاء بل يحل بها بعد حين وآخر ما يعد حادثة .

سواء كانت هذه الحادثة خيرة تدعو إلى الفرح والابتهاج ـ وتضيف إلى الأمة وأمجادها نصراً وفوزاً.

أو كانت الحادثة من النوع الآخر التي ترج الأمة، وتفرق وحدتها، وتهزم صمودها، وتجعل الدائرة تدور عليها . .

والجيل الأول جيل الصحابة رضوان الله عليهم ـ كانت حياتهم سلسلة من النصر والهزيمة . ومن الرخاء الذي يعم كل الناس حتى لا تجد جائعاً أو محتاجاً إلى الجوع، والمسغبة حتى يتزاحمون على جلود الحيوانات ومضغ أوراق الشجر . .

. . ومن الحوادث التي كان لها تأثير في تربية المسلمين ـ وتصفية ما كان باقياً عند بعضهم من ترسبات الجاهلية وأهواء النفس غزوة أُحد .

تلك الغزوة التي كان لها تأثير كبير في تربية الجيل الأول.

لقد جاءت هذه الغزوة بعد غزوة بدر الكبرى ـ التي نصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً وفتح الله عليهم فتحاً كبيراً.

لقد كان المسلمون في غزوة بدر قلة وكانوا يعرفون أنهم قليل

وكانوا لا يملكون من وسائل الحرب ومعداتها إلا رماحاً صدئة، وسيوفاً ليست قاطعة، وبعض السهام والعصي.

بينما كان الأعداء كثرة في العدد والعدة، كثرة في السلاح والعتاد، كثرة ترهب ـ وتؤكد النصر لهم والفوز على المسلمين..

ولكن المسلمين كانوا يملكون سلاحاً لم يتسلح به الأعداء، وليس ذلك في استطاعتهم إن هم أرادوه في ذلك الوقت.

لقد كان مع المؤمنين سلاح الإيمان سلاح التقوى.

لقد خرج كل جندي في غزوة بدر وليس له خيار في أمر ثالث: إنما هو النصر الذي يعود به لجماعة المسلمين.

أو الاستشهاد في سبيل الله حتى يفوز بالجنة.

لقد طرحوا الدنيا وراء ظهورهم، واتجهوا إلى الله بكليتهم.

فليست الدنيا يريدون.

وليس حطامها يبغون.

وأيضاً ليست الشهرة أو الرياء أو السمعة.

ارتبط رأيهم على ذلك، واتفقت أفئدتهم على نصرة دين الله ونشر دينه في ربوع الأرض،. فلو كانت أمامهم الجبال لأزالوها.. أو اعترضتهم البحار لخاضوها لملاقاة الأعداء.

يقول المقداد بن عمرو:

«يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك.. والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

«اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد «مدينة بالحبشة» لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

ويقول سعد بن معاذ:

«يا رسول الله: قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا، فامض يا رسول الله لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقي العدو بنا غداً، إنا لصبر عند العرب، صدق عند اللقاء، لعل الله، يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله[١]»

.. لقد كان الجميع خلف قائدهم على قلب رجل واحد.. وكان الجميع ومعهم قائدهم يطلبون النصر من الله، ويعتقدون اعتقاداً جازماً بأن قوتهم وعددهم وأسلحتهم لا تساوي شيئاً في ميزان المعركة إذ لم يمن الله عليهم بالنصر ولذلك وقف الرسول - ﷺ يناشد ربه ويقول:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. اللهم أنجز لي ما وعدتني».

واستجاب له ربه وتم النصر للمؤمنين قال تعالى:

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون(١٢٣) إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين(١٢٤) بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين(١٢٥)، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم(١٢٦) ﴾[٢].

فالنصر في النهاية لن يكون بقوة السلاح.

ولن يكون النصر بعدد الجنود

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٢٠

(٢) سورة آل عمران: الآيات من ١٣٣ - ١٣٦

ولن يكون بصلابة الحصون.

ومع ذلك كل هذه الأشياء عوامل لا بد منها في الجيش المقاتل، لا يصح إغفالها بأي حال من الأحوال.

ولكنها ليست سبباً للنصر. ولن يتحقق النصر بها.

ولن يتحقق النصر عن طريق فرد من الأفراد أياً كان هذا الفرد رسولاً أو غير رسول. النصر في النهاية من عند الله.

فقد يكون المسلمون ضعفاء في قوة العدد، وضعفاء في قوة السلاح، وفي غير استعداد كامل ومع ذلك يحققون النصر.

كما حدث في غزوة بدر.

وقد يكونون أقوياء أكثر عدداً وعدة ومع ذلك لا يحققون النصر ـ وينهزمون أمام أعدائهم قال تعالى:

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين[1] ﴾

أما في غزوة أحد فقد كان الأمر مختلفا.

لقد كان من رأي الرسول ـ ﷺ ـ البقاء في المدينة ومقابلة الأعداء على حدودها.

ولكن بعض جماعة المسلمين كان لا يرى هذا الرأي.. حتى أكرهوا الرسول ـ ﷺ ـ على الخروج.

هذه واحدة. ثم ماذا..؟

سار الجيش في طريقه لملاقاة الأعداء، وفي تصورهم أن النصر حليفهم لقد خبروا هؤلاء في غزوة بدر وانتصروا عليهم ـ وهم قلة ـ إذن لا بد من النصر عليهم ـ وهم جميع.

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٢٥

وكانت الثانية ؛ من إضافتهم النصر لأنفسهم . وما كادوا يبتعدون عن حدود المدينة حتى عاد عبد الله بن أُبَـي زعيم المنافقين بثلث الجيش . . وتحولت الكثرة إلى قلة . وأخذوا يثوبون إلى رشدهم وعادوا لربهم ـ وطلبوا منه النصر والعودة والسداد في الرأي .

والتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً واستطاعت النفوس المؤمنة أن تكتسح أمامها قوى الشر والبغي والعدوان وخلت ساحة القتال إلا من المسلمين . . يتابعون فلول الأعداء ويجبرونهم على إلقاء ما معهم من سلاح وعتاد. وجاءت الثالثة : عندما شاهد الرماة انهزام المسلمين وامتلاء ساحة القتال بالغنـائم. فخالفـوا أمر الرسول ـ ﷺ ـ وتركوا أماكنهم رغبة في جمع الغنائم وحيازة الدنيا . .

لقد خالف بعض المسلمين أمر الرسول ـ ﷺ ـ وأكرهوه على الخروج ، وخالف بعضهم إجماع المسلمين ورجعوا من الطريق وكرهوا مواجهة الأعداء وتركوا إخوانهم يجابهون هذا المصير المؤلم .

وخالف الرماة أمر الرسول ـ ﷺ ـ بعدم ترك أماكنهم مهما كانت الأمور انهزم المسلمون أو انتصروا . .

ولكن الشيطان سوّل لهم أمراً ، واعتقدوا أنه النصر المؤزر والفتح المبين فقرروا النزول لأخذ نصيبهم من الغنيمة . .

فكان لا بد من هزيمتهم للعظة والعبرة. والتذكرة والتنبيه ـ وتربية عقولهم للخضوع لأمر الله وأمر رسوله ـ ﷺ .

يقول صاحب الظلال(١) :

«غزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده، إنما كانت معركة كذلك في الضمير، كانت معركة ميدانها أوسع الميادين ، لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه .

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٤٨ ـ ٤٩ بتصرف.

ميدان النفس البشرية وتصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها ودوافعها وكوابحها على العموم.

وكان القرآن هناك يعالج هذه النفس بألطف وأعمق، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزول.

وكان النصر أولاً.

وكانت الهزيمة ثانياً

وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة.

انتصار المعرفة الواضحة، والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين، وتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وانطلاق الجماعة المسلمة ـ بعد ذلك ـ متحررة من غبش التصور، وتميع القيم في الصف المسلم.

وذلك بتميز المنافقين في الصف إلى حد كبير، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق في القول والفعل، في الشعور والسلوك.

لقد انتهت المعركة في ميدان الأرض ليبدأها القرآن في ميدانها الأكبر: ميدان النفس، وميدان الحياة الشاملة للجماعة المسلمة.

وصنع بهذه الجماعة ما تصنعه يد الله، عن علم وعن حكمة وعن خبرة، وعن بصيرة وكان ما شاء الله وما دبره. وكان فيه الخير العظيم، من وراء الضر والأذى والابتلاء الشاق المرير.

ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه.

وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحضّ عليه.

وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة

وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس.

وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار

وعلى التوبة وعدم الإضرار فجعلها كلها مناط الرضوان

كما عرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول ـ ﷺ، ولين قلبه للناس

وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحرج الأوقات.

وعلى الأمانة التي تمنع الغلول.

وعلى البذل والتحذير من البخل.

عرج القرآن على ذلك كله. لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة في نطاقها الواسع معركة التعبئة الكاملة للانتصار الكبير.

الانتصار على النفس والشهوات والمطامع والأحقاد، والانتصار في تقرير القيم والأوضاع السليمة لحياة الجماعة الشاملة».

والمستعرض للمنهج القرآني يجد أن الحادثة لها مجال كبير في وسائله الخاصة بالتربية.. وأنها كان لها دور كبير في تربية الجيل الأول:

الجيل الأول: الذي خرج من الجزيرة العربية وبيده هذا المنهج، وانداح في أركان الأرض الأربعة. فمدَّن الدنيا وهذَّب العالم وقرر الحق للإنسان..

ونحن الآن ما أكثر الحوادث التي تمر في حياتنا ولكنها تمضي وتذهب فإن كانت خيراً تفلت من أيدينا.

وإن كانت شراً تركت في قلوبنا حسرة، وفي نفوسنا لوعة.. وملأت أجسامنا بالجروح والندوب.. فمتى نعى هذا المنهج ونأخذ نفوسنا به..؟

٤

التربية بالعقوبة

الناس أصناف وأنواع يختلفون ويتباينون . .

يختلفون في الأشكال والألوان .

ويختلفون في الطبائع والعادات .

وهذا الاختلاف يرجع بعضه إلى جبلة الإنسان وخلقته ، والبعض الآخر ، يرجع إلى طبيعة البيئة ، البيئة الاجتماعية ، والبيئة الجغرافية ، وظروف النشأة وغير ذلك .

ومن أجل ذلك تختلف طبيعة التعامل معهم .

فمن هؤلاء الناس من تكفيه الإشارة البعيدة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف .

ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح .

ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيد .

ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه .

ومنهم من لا بد أن يشعر لذع العقوبة على جسمه .

أنماط شتى ومجموعات متباينة من الخلق .

ولهذا يلجأ منهج القرآن إلى استعمال العقوبة كوسيلة من وسائل التربية في المجتمع المسلم . وهو لا يفعل ذلك إلا بعد استنفاد الوسائل الأخرى من أنماط التربية .

ومن أنواع العقوبة: يهدد بعدم رضاء الله تعالى.. قال تعالى:

﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم (١٦)**[١] ﴾

قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين.

والخشوع: الخضوع. قال تعالى: ﴿ **ترى الأرض خاشعة**[٢] ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وكانوا لنا خاشعين**[٣] ﴾ أي خائفين

وقوله: ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**[٤] ﴾. أي المتواضعين.

والآية عتاب مؤثر من الله سبحانه وتعالى إلى تلك القلوب التي لم تستجب لأمره بعدما أرسل لها الرسل. بالآيات والمعجزات. لتخرجها من الظلمات إلى النور ويقال: إن أحد الرجال كان يقتحم على الناس منازلهم ويكشف عوراتهم ويهتك سترهم. فإذا لم يجد وسيلة للدخول وكانت الأبواب مغلقة.. تسلق الجدران والأسوار.. وروَّع الناس في بيوتهم.

وفي إحدى المرات.. وهو يفعل هذه الفعلة ـ ويتسور إحدى الجدر سمع هاتفاً يقول: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله..

وما كاد يسمع هذه الآية حتى ملكت جوانب نفسه.. وسيطرت على كل ذرة من كيانه وهتف من أعماقه.

قد آن يا رب.

ونزل من فوره وأصلح الله حاله.

---

(١) سورة الحديد آية رقم ١٦

(٢) سورة فصلت آية رقم ٣٩

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٩٠

(٤) سورة البقرة آية رقم ٤٥

ومرة يهدد بغضب الله صراحة. كما جاء في حادث الإفك قال تعالى:

﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤)**[1] ﴾

هي فعلة تستحق العذاب العظيم.

هي فعلة ألقى الكلام فيها بلا تدبر ولا تروٍّ ولا فحص ولا إنعام نظر.

ولكن الله سبحانه وتعالى احتسبها للجماعة المسلمة درساً قاسياً فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه.

ومرة يهدد بحرب من الله ورسوله. قال تعالى:

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله**[2] ﴾

وهل في مقدور النفس البشرية أن تجابه هذه الحرب.. الحرب الرهيبة المعروفة المصير؟.

وأين هذا الإنسان الضعيف الفاني من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة..؟ إن كل مجتمع يتعامل بالربا تعلن عليه الحرب.. ليست الحرب التقليدية المعروفة ولكنها حرب أخرى..

حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة.

حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض.

حرب المطاردة والمشاكسة، حرب الغبن والظلم، حرب القلق والخوف وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش.

الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت.

---

(١) سورة النور آية رقم ١٤

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٧٩

فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر.

وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات، ثم تقع فيها الشعوب والحكومات، ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب، أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب. أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب.

وأيسر ما يقع - إن لم يقع هذا كله. هو خراب النفوس، وانهيار الأخلاق، وتحطيم الكيان البشري من أساسه(١).

ومرة يهدد بعقاب الآخرة قال تعالى:

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾(٢)

من يفعل ما نهى الله عنه، والذي يتبع هواه، ويستجيب لدعاء الشيطان فيحاول الإفساد في الأرض، والعبث بهذا الكون المنظم، فيقتل النفس، ويزهق الأرواح ويحاول أن يدمر كل شيء.. في انتظاره العذاب الأليم، والشقاء المتواصل يوم القيامة جزاء ما اقترفت يداه..

والذي يسطو على أعراض الناس، ويلوث طهارتهم، ويمزق عفتهم وأمامه الحلال الطيب.. هو إنسان غير سوي.. فلا بد أن يلقى جزاءه.. وتوقع عليه

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٣ ص ٨٨ - ٨٩

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٨

العقوبة ولكن هذه العقوبة في الآخرة في يوم الأعمال المعروضة والأسرار المكشوفة . .

ومنهج القرآن عندما يقدم هذه النماذج من العقاب . . يأمل أن يعود الأفراد إلى رحاب الله ويتوبوا إليه حتى يعيش المجتمع الإسلامي في نظافة وطهارة، في إيمان وصدق .

نماذج فاضلة
للتربية الإسلامية

١ ـ كعب بن مالك
٢ ـ أبو حازم وسليمان بن عبد الله
٣ ـ الفضيل بن عياض وهارون الرشيد
٤ ـ شريك بن عبد الله والأمير موسى بن عيسى
٥ ـ عبد الله بن أبي سلول وابنه
٦ ـ الشيخ شمس الدين الديروطي والسلطان الغوري

لقد وفقنا الله سبحانه وتعالى على أن نعيش فترة طويلة من حياتنا دارسين لكتاب الله تعالى، ومتدبرين لآياته آناء الليل وأطراف النهار، وكلما سنحت الفرصة أو خلا القلب من مشاغل الحياة، ودوامة الوجود، حتى تمكنا بحمد الله وحسن عنايته ورعايته أن نقدم هذا المنهج مستقين كلياته وجزئياته من القرآن الكريم.

ونحب أن نقول في النهاية إن منهج التربية هذا لم يكن كلمات في المصحف مسطورة، ولا آيات في قلوب الرجال محفوظة.

وإنما كان واقع المسلمين الحي، وسلوكهم الذي ألزموا به نفوسهم، وطبقوه على ذواتهم. ليكون دليلاً لهم في كل شأن من شؤون الحياة.

ولذا يطيب لنا أن نقدم بعض النماذج التي التزمت بكتاب الله وصوراً من حياتهم. لعل المسلمين يجدون فيها شخصيتهم التي تاهت منهم في هذا الحصر، عندما ابتعدوا عن هدى النبوة وجعلوا كتاب ربهم وراءهم ظهرياً.

وأولى هذه النماذج كعب بن مالك.

١

كعب بن مالك

كعب بن مالك الذي قال عنه ابن سيرين:

«بلغني أن قبيلة «دوس» أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك:

قضينـــا من تهـــامـــة كـــل وتـــر
وخيبـــر ثم أجمعنـــا السيـــوفـــا
نســائلهـــا ولـــو نـــطقت لقـــالت
قـــواطعهـــن «دَوْســـا» أو ثقيفـــا[1]

فقالت دوس:

انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف.

ويقال إن كعبا ذهب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم: وقال:

«يا رسول الله «إنني أبغي أن أقلع عن قول الشعر»

فقال له الرسول ـ ﷺ:

«المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

ولكن كعباً هذا تخلف عن رسول الله ـ ﷺ في غزوة تبوك. فلماذا تخلف؟

وما الذي دفعه إلى ذلك..؟

---

(١) راجع رجال أنزل الله فيهم قرآناً ص ٦٤ جـ ١

للإجابة على هذه الأسئلة وكثير غيرها. . نترك كعباً يحدثنا عن سبب تخلفه عن غزوة تبوك. . ؟

قال كعب بن مالك:

«لم أتخلف عن رسول الله - ﷺ - في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك. غير أني قد تخلفت في غزوة بدر. ولم يعاتب أحداً تخلف عنه إنما خرج رسول الله - ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش.

حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام.

وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك أني لم أكن قط ولا أيسر مني حين تخلفت في تلك الغزوة

والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

فغزاها رسول الله - ﷺ - في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً.

واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم. فأخبرهم بوجههم الذي يريد.

والمسلمون مع رسول الله - ﷺ - كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ قال كعب:

فقلَّ رجل يريد أن يتغيب. يظن أن ذلك سيخفى له. ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل.

وغزا رسول الله - ﷺ - تلك الغزوة حين طابت الثمار.

فتجهز رسول الله - ﷺ والمسلمون معه.

وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً.

وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد.

فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ـ ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت ولم أقضِ شيئاً, فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارض الغزو. فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ فيا ليتني فعلت.؟؟

ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحزنني أني لا أرى لي أسوة. إلا رجلاً مغموصاً[1] عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بلغ تبوكاً.

فقال وهو جالس في القوم بتبوك:

ما فعل كعب بن مالك..؟

قال رجل من بني سلمة:

«يا رسول الله حبسه برُ والنظر في عِطفيه»

فقال معاذ بن جبل:

«بئس ما قلت!! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً».

فسكت رسول الله ـ ﷺ.

فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبيِّضاً يزول به السراب فقال رسول الله ـ ﷺ. كن أبا خيثمة».

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع تمر حين لمزه المنافقون قال كعب:

«فلما بلغني أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول:

«بم أخرج من سخطه غداً..؟

فلما قيل لي: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد ظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت

---

(١) مغموصاً: أي متهماً به.

أني لن أنجو منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقة

وصبح رسول الله ـ ﷺ ـ قادماً ـ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.

فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له.

فقبل منهم رسول الله ـ ﷺ ـ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله.

حتى جئت، فلما سلمت تبسم المغضب ثم قال: تعال».

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي:

«ما خلفك..؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك..؟

قلت؛ يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ.

ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه. إني لأرجو فيه عقبى الله.

والله ما كان لي عذر.

والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.؟؟

قال رسول الله ـ ﷺ:

«أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك»

«فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني.

فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بما اعتذر به إليه المتخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار ـ رسول الله ـ ﷺ ـ لك.

فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ـ ﷺ فأكذب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد..؟

قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك.
قلت: من هما..؟
قالوا: مُرارة بن ربيعة العامري. وهلال بن أمية الواقفي.
فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة.فمضيت حين ذكروهما لي
قال: ونهى رسول الله - ﷺ عن كلامنا «نحن» الثلاثة. من بين من تخلف عنه.
قال: فاجتنبنا الناس.
وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسى الأرض فما هي بالأرض التي أعرف.
فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.
فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان.
وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم. فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد.
وآتي رسول الله - ﷺ - فأسلم عليه - وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي:
«هل حرك شفتيه برد السلام أم لا...؟

ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلَّي وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحبّ الناس إلّي - فسلَّمت عليه فوالله ما رد السلام.

فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟
قال: فسكت.

فعدت فناشدته.

فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:

«من يدل على كعب بن مالك..؟

قال: فطفق الناس يشيرون له إلّي.

حتى جاءني فدفع إلَّي كتاباً من ملك غسان. وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد:

«فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك.

فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء.

فتيامنت بها التنور فسجرتها بها. حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذ رسول رسول الله - ﷺ - يأتيني.

فقال: إن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل..؟

قال: بل اعتزلها فلا تقربها

فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك.

فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله - ﷺ - فقالت له: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه..؟

قال: لا. ولكن لا يقربنك».

فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء.

ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا

فقال لي بعض أهلي:

«لو استأذنت رسول الله - - في امرأتك. .؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله - ﷺ - وما يدريني ماذا يقول رسول الله - ﷺ - إذا استأذنته فيها. .؟ وأنا رجل شاب. .؟؟

قال: فلبثت بذلك عشر ليال. فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال الذي ذكر الله عز وجل منا - قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت.

سمعت صوت صارخ أوفى على «جبل» سلع يقول بأعلى صوته:

«يا كعب بن مالك أبشر».

قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج.

قال: فأذن رسول الله - ﷺ - بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فذهب قِبَل صاحبي مبشرون، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني. فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته.

والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أقصد رسول الله - يتلقاني الناس فوجاً فوجاً. يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك.

حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله - ﷺ - جالس في المسجد وحوله الناس.

فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني.

والله ما قام رجل من المهاجرين غيره.

قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله - ﷺ - قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك».

فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله..؟

فقال: لا بل من عند الله»

قال: فلما جلست بين يديه قلت:

«يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ..؟

فقال: رسول الله - ﷺ:

«أمسك بعض مالك فهو خير لك».

فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر».

وقلت: يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت.

قال: فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أنعم الله عليه في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله - ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به.

والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله - ﷺ - إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقى.

قال فأنزل الله عز وجل:

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم(١١٧) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب

الرحيم (١١٨)[1]

قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ـ ﷺ.

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨

٢

أبو حازم وسليمان بن عبد الله

وهذا رجل آخر من صحابة رسول الله - ﷺ - ممن تربى في مدرسة القرآن ونهل من نبع النبوة. يلتقي مع رجل آخر من رجال السلطان والملك ويدور بينهما هذا الحوار:

روى الدارمي في مسنده عن الضحاك بن موسى قال:

مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة - وهو يريد مكة - فأقام بها أياماً فقال:

هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبي - ﷺ . . ؟

قالوا له: أبو حازم. فأرسل إليه، فلما دخل عليه قال له:

«يا أبا حازم ما هذا الجفاء. . ؟

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني. . ؟

قال سليمان: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني.

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك.

فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري فقال:

«أصاب الشيخ وأخطأت».

قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت. . ؟

قال أبو حازم: لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنقلوا من

العمران إلى الخراب.

قال: أصبت يا أبا حازم. فكيف القدوم غداً على الله تعالى..؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله..؟

قال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب الله.

قال سليمان: وأي مكان أجده..؟

قال: إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم».

قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم..؟

قال: رحمة الله قريب من المحسنين.

قال سليمان: يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم..؟

قال: أولو المروءة والنهي.

قال سليمان: فأي الأعمال أفضل..؟

قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال سليمان: فأي الدعاء أسمع..؟

قال: دعاء المحسن إليه للمحسن.

فقال سليمان: أي الصدقة أفضل..؟

قال أبو حازم: للسائل البائس وجهد المقل، ليس منها منٌّ ولا أذى

قال سليمان: فأي القول أعدل..؟

قال أبو حازم: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه.

قال سليمان: فأي المؤمنين أكيس..؟

قال أبو حازم: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها.

قال سليمان: فأي المؤمنين أحمق..؟

قال أبو حازم: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره

قال له سليمان: أصبت فما تقول فيما نحن فيه..؟

قال يا أمير المؤمنين أو تعفيني..؟

قال له سليمان لا، ولكن نصيحة تلقيها إليَّ.

قال أبو حازم: إن آباءك قهروا الناس بالسيف. وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت بما قالوه وما قيل لهم..؟

فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم.

قال أبو حازم: كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال له سليمان: فكيف لنا أن نصلح..؟

قال: تدعون الصَّلف، وتمسكون بالمرؤة، وتقسمون بالسوية.

قال له سليمان: فكيف لنا بالمأخذ به..؟

قال: أبو حازم: تأخذه من حله وتصنعه في أهله.

قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك..؟

قال أبو حازم: أعوذ بالله.

قال له سليمان: ولم ذاك..؟

قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك.

قال أبو حازم: تنجيني من النار وتدخلني الجنة.

قال سليمان: ليس ذاك إليَّ.

قال له أبو حازم: فما لي إليك حاجة غيرها.

قال سليمان: فادع لي.

قال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن

كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

قال له سليمان: قط.

قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

قال له سليمان: أوصني.

قال: سأوصيك وأوجز، عظم ربَّك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال الراوي: فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه: إن أنفقتها لك عندي مثلها كثير. فردها عليه أبو حازم وكتب إليه يا أمير المؤمنين:

«أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً.

أو ردي عليك بذلاً، وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي..؟

ثم ساق أبو حازم في كتابه إلى سليمان قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وقد سقى لهما غنمهما ثم التجأ إلى الله تعالى بقوله:

﴿ رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير[1] ﴾

فسأل ربه ولم يسأل الناس

ثم قال أبو حازم: فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه، وإن كانت لحق في بيت المال فلي فيها نظراء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة.

---

(١) سورة القصص الآية ٢٤.

٣
الفضيل بن عياض وهارون الرشيد

حدث الفضل بن الربيع قال:

حج أمير المؤمنين ـ هارون الرشيد ـ فأتاني ـ فخرجت مسرعاً

فقلت: أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك.

فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله.

قلت: ها هنا سفيان بن عيينة

فقال: امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعنا الباب فقال: من ذا..؟

قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً

فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت لأتيتك.

فقال: خذ لما جئنا له: رحمك الله.. فحدثه ساعة ثم قال: «عليك دين».؟

فقال: نعم.

فقال: أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك انظر لي رجلاً أسأله.

قلت: ههنا عبد الرزاق بن همام.

قال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعنا الباب فخرج مسرعاً.

فقال: من هذا..؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك.

فقال: خذ لما جئنا له.. فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين..؟

قال: نعم.

قال أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً.. انظر لي رجلاً أسأله

قلت: ههنا الفضيل بن عياض.

قال: امض بنا إليه.

فأتيناه: فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب. فقرعت الباب.. فقال: من هذا..؟

قلت أجب أمير المؤمنين.

فقال: سبحان الله أما عليك طاعة.

فقال: أليس قد روي عن النبي ـ ﷺ، أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه».

ثم نزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا، فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كف.. ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل..؟؟

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال له: خذ لما جئناك له، رحمك الله.

فقال: إن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ لما ولي الخلافة، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة.

فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ.. فعد الخلافةبلاء

وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أباً وأوسطهم أخاً، وأصغرهم عندك ولداً. فوقر أباك، وكرم أخاك وتحن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة:

«إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك. ثم مت إذا شئت.

وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله ـ مثل هذا..؟ أو من يشير عليك بمثل هذا..؟

فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشى عليه.

فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين.

فقال: يا ابن الربيع.. تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا..؟؟

ثم أفاق الرشيد.

فقال له: زدني رحمك الله.

فقال؛ يا أمير المؤمنين: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر:

يا أخي.. أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد. حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: «ما أقدمك..؟»

قال: خلعت قلبي بكتابك.. لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل..

فبكى الرشيد بكاء شديداً ثم قال له: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى ﷺ ـ جاء إلى النبي ـ ﷺ.

فقال: يا رسول الله أمرني علي إمارة. .

فقال له النبي - ﷺ -

«إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل»

فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال:

«زدني رحمك الله».

فقال: يا حسن الوجه: أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك. فإن النبي - ﷺ قال:

«من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»..

فبكى هارون وقال له: عليك دين. .؟

قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال: إنما أعني من دين العباد.

قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره.

فقال: عز وجل:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾

فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك.

فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا. . ؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا. . فخرجنا من عنده فلما صرنا إلى الباب قال هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا.

هذا سيد المسلمين، فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت:

«يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرحنا به. . ؟

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه».

فلما سمع هارون هذا الكلام قال:

ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل، خرج فجلس في السطح على باب الغرفة. فجاء هارون فجلس إلى جنبه. فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت:

«يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا».

علام تدل هذه الحادثة. . ؟

وما العبرة التي يمكن أن نأخذها منها. . ؟

حاكم الدولة يطلب النصيحة ويسعى في طلبها وهي لا تأتي إليه حتى لا تكون في مركز الضعف.

ولكنه يطرق الأبواب إليها ويتلمس الوسيلة للعثور عليها.

وتأتي النصيحة إليه عن طريق القدوة والمثل.

فهناك حاكم مثله كان يجمع حوله أهل الورع والتقوى وعيون العلماء وخاصة المسلمين

يجمعهم حوله للتذكير إذا نسي.

ويجمعهم حوله للنصيحة إذا ضل.

ويجمعهم حوله لاستشارتهم، وحتى لا يقطع أمراً دونهم.

والشورى من قواعد الحكم في الإسلام. طلبها الرسول ـ ﷺ بقوله:

«أشيروا علينا أيها الناس».

وأمر الله سبحانه وتعالى بها في قوله:

«وشاورهم في الأمر».

ومدح المؤمنين بها في قوله:

«وأمرهم شورى بينهم».

والحاكم هذا لم يفعل ذلك حوله حاشية من خلصائه، ويحيط به رجال جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة، ولكنهم لا يدعونه إلى النجاة، ولا يرشدونه إلى طريق الحق، حتى يصل إلى هذا العالم.

العالم الذي تربي في مدرسة القرآن.

وتمذهب بمذهب الحق. فصدع أمامه بكلمة الصدق.

ذكره بالدار الآخرة. وكان التذكير والتخويف بشيء يمس الحاكم ويتأثر به

أهذه اليد لك..؟

ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله..؟؟

واختار العالم يد الحاكم لماذا..؟

لماذا اليد بالذات..؟

لأنها ليست كأيدي الآخرين.

يد الحاكم هي التي توقع وتصدر الأحكام، وتعفو عن الناس، وتقسم بينهم أموالهم.

يد الحاكم: تشارك مشاركة فعالة في كل شؤون الرعية.

أيمكن أن تنجو غداً من عذاب النار..؟

نعم إن كانت على الجادة. إن ابتعدت عن الجور وأقامت العدل بين الناس.

والحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين.

رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في المجتمع.

رجل يصلي لنفسه ويؤم الناس في الصلاة

رجل يخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين.

رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع.

٤

شريك بن عبد الله والأمير موسى بن عيسى

يروي صاحب العقد الفريد أن امرأة أتت يوماً القاضي شريك بـن عبد الله قاضي الكوفة ـ وهو في مجلس الحكم فقالت:

«أنا بالله ثم القاضي».

قال: من ظلمك..؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى بن عم أمير المؤمنين.

ثم ذكرت قصتها فقالت:

«كان لي بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً، يحفظ النخل ويقوم به، فاشتري الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي. وساومني ورغبني فلم أبعه فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل، فاقتلعوا الحائط وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً. اختلط بنخل إخوتي.

فقال القاضي شريك:

«يا غلام أحضر الطبنة ـ أي الخاتم فكتب ورقة وختمها وقال للمرأة: امض إلى بابه بالختم حتى يحضر معك.

فجاءت المرأة بالورقة المختومة فأخذها الحاجب.

ودخل على موسى بن عيسى فقال: قد أعدي القاضي عليك وهذا ختمه.

فقال الأمير: ادع لي صاحب الشرطة فدعا به.

فقال له: امض إلى شريك وقل له:

«سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها على..؟

قال صاحب الشرطة:

إن رأي الأمير أن يعفيني من ذلك..؟

قال: امض ويلك.

فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه اذهبوا وأدخلوا إلى حبس القاضي بساطاً وفرشاً وما تدعو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك.

فلما وقف بين يديه أدى الرسالة.

فقال القاضي لغلام المجلس:

«خذ بيده فضعه في الحبس».

فقال صاحب الشرطة والله لقد علمت أنك تحبسني فقدمت ما أحتاج إليه إلى المجلس.

وبلغ الأمير موسى الخبر، فوجه الحاجب إليه وقال له:

«رسول أدى الرسالة، أي شيء عليه..؟

فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس، فحبس الحاجب مع صاحب الشرطة، فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك وقال لهم: امضوا إلى القاضي وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بي، وأني لست كالعامة.

فمضوا ـ وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة.

فلما انقضى كلامهم قال لهم القاضي:

«وما لي أراكم جئتموني في جماعة من الناس فكلمتموني..؟

من ههنا من فتيان الحي..؟

فأجابه جماعة من فتيان الحي.

فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس.

ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس.

قالوا: أجاد أنت..؟

قال: حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظلم فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره.

فدعا بالقمطر فختمه ووجه إلى منزله، وقال لغلامه الحق بثقلى إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكنهم أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم.

ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب في موكبه ولحقه وجعل يناشده الله.

ويقول: يا أبا عبد الله تثبت انظر إخوانك تحبسهم. وهم أعواني.

قال: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني. فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف مكانه. حتى جاءه السجان فقال: «قد رجعوا جميعاً إلى الحبس».

فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس في مجلس القضاء.

فجاءت المرأة المتظلمة فقال: هذا خصمك وقد حضر

فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر، أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس.

فقال: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة..؟

قال: صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها وتبني حائطاً سريعاً كما كان

قال موسى: أفعل ذلك كله..؟

قال القاضي للمرأة: أبقى لك عليه شيء..؟

قال: بيت الرجل الفارسي ومتاعه.

قال موسى: ويرد ذلك كله.

قال القاضي: أبقى لك عليه دعوى..؟

قالت: لا. وبارك الله عليك وجزاك خيراً.

قال: قومي فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه. وقال: «السلام عليك أيها الأمير أتأمر بشيء..؟

قال: أي شيء آخر..؟ وضحك.

فقال له شريك: أيها الأمير: ذاك الفعل حق الشرع. وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول:

من عظم أمر الله، أذل الله له عظماء خلقه.

٥

عبد الله بن أبي سلول وابنه

بعد انتصار الرسـول ـ ﷺ ـ على بني المصطلق. وردت واردات الناس على الماء ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار

يقال له: جهجاه بن مسعود. فازدحم مع سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء.. فاقتتلا.

فصرخ الجهني يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي سلول ـ وعنده رهط من قومه ـ فيهم زيد بن أرقم غلام حدث

قال: أوقد فعلوها..؟

قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا

والله ما اعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك.

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم..؟؟

وقاسمتموهم أموالكم..؟

أما والله لو أمسكتم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك عند فراغ رسول الله ـ ﷺ ـ من عدوه فأخبره الخبر ـ وعنده عمر بن الخطاب فقال: مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله.

فقال له رسول الله ـ

«فكيف يا عمر. . ؟ إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. لا ولكن أذِّن بالرحيل».

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يرتحل فيها.

فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول ـ إلى رسول الله ـ ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ـ فحلف بالله ما قلت: ما قال، ولا تكلمت به.

وكان في قومه شريفاً عظيمًا.

فقال: من حضر رسول الله ـ ﷺ ـ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل عطفاً على ابن سلول

فلما استقل رسول الله ـ ﷺ ـ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية الإسلام وسلم عليه ثم قال:

«يا نبي الله ـ والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. . ؟

فقال له رسول الله ـ ﷺ:

«أو ما بلغك ما قال صاحبكم».

قال: وأي صاحب يا رسول الله. . ؟

قال: عبد الله بن أبي سلول.

قال: وما قال. . ؟ يا رسول الله.

قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل»

قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز

ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه. فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وفي رواية أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عبد الله بن عبد الله بن أبي وقال: «ألا ترى ما يقول أبوك..؟

قال: مايقول؟ بأبي أنت وأمي..؟

قال يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فقال: فقد صدق والله يا رسول الله. أنت والله الأعز وهو الأذل

أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني.

لئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به.

فقال: رسول الله ـ ﷺ: لا.

فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال:

أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ـ ﷺ ـ والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله.

فقال: يا للخزرج، ابني يمنعني بيتي..؟؟

فقال: والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه.

فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال:

«والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله.

فأتوا النبي ﷺ - فأخبروه.

فقال: اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه». فأتوه فقال: «أما إذا جاء أمر النبي - ﷺ - فنعم»

٦ الشيخ شمس الدين الديروطي والسلطان الغوري

دخل الشيخ الديروطي في أحد الأيام مجلس السلطان الغوري وبادر الشيخ بإلقاء تحية الإسلام على السلطان.

ولكن السلطان أخذته العزة بالإثم فتجاهل الشيخ وتجاهل تحيته وكان يمكن أن يعود الشيخ من حيث أتى. ويقاطع مجلسه فلا يذهب إليه. .

ولكن الرجل الذي تربى في مدرسة الإسلام أبى مغادرة المجلس حتى يلقن هذا السلطان الذي يتحكم في رقاب العباد درساً لا يمكن أن ينساه.

فقال الشيخ: إن لم ترد السلام فسقت وعزلت.

فقال السلطان: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم قال السلطان:

«لماذا تهاجمنا على ترك الجهاد، ومقاتلة الأعداء وليس لنا مراكب نجاهد المعتدين عليها. .؟

فقال الشيخ: بل عندك المال الذي تجهزها به.

فطال بينهما الكلام.

فقال الشيخ: قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان، أما تذكر حين كنت نصرانياً ثم أسروك، وباعوك من يد إلى يد، ثم منَّ الله عليك بالحرية والإسلام، ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق. .؟

وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طبيب، ثم تموت، وتكفن ويحفرون لك قبراً مظلماً، ثم يدسون أنفك هذا في التراب، ثم تبعث عريان عطشان جوعان، ثم توقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادي المنادي: من كان له حق على الغورى فليحضر.

فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله.

فتغير وجه السلطان من كلامه، وأوشك أن يختل عقله ولم يجد أمامه من حيلة سوى أن يعرض على الشيخ مبلغاً من المال هو عشرة آلاف دينار يشتري بها سكوته وصمته على مخازيه، وسلبه حرية الشعب وأمواله، وجبنه عن مواجهة الأعداء.

ولكن الرجل الذي يجابه السلطان بكلمة حق، محال أن تخدعه عروض الدنيا أو يغريه بريق الذهب فردها عليه قائلاً:

«أنا رجل ذو مال. ولا أحتاج إلى مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجاً لأجل الجهاد، لأجل تجهيز الجيش، من أجل الدفاع عن الإسلام أقرضتك وصبرت عليك.

يقول راوي الحديث:

فما رئي أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس.

ويتكاسل الغوري عن الجهاد.

ويتباطأ في إعداد العدة، ويهمل قول ربه:

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل(١)».

ويأتي الجيش العثماني بعدته وعتاده، ويستولي على مصر، ويطلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها وقوادها أن يأتوا إليه في القلعة مركز الحكم لتقديم فروض الولاء والطاعة.

وهرع الجميع إليه يتزلفون، وينافقون، ويقدمون الولاء والطاعة.

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠.

ولكن رجلاً ممن تربوا في مدرسة القرآن، وتشربوا روح الإسلام ونهلوا من ينابيع الإيمان يرفض هذا الطلب.

ويمتنع عن الذهاب إلى القائد المنتصر.

ويطلبه القائد ويلح في الطلب.

ولكن الرجل الرباني يرفض ويصر على الرفض.

ولم يجد القائد المنتصر من وسيلة إلا النزول إليه.

نزل الحاكم وحاشيته.

نزل القائد المنتصر وأركان حربه.

وخضع الجميع لرأي هذا الرجل.

ويقول القائد للرجل الرباني: لم لم تأت إلينا..؟

ويرد الرجل المؤمن:

«لم نتعود الخروج إلى أحد».

ويطول الصمت بين الرجلين، ويحس القائد المنتصر بضآلته أمام هذا الرجل يحس بأن نصره وصولجانه وجنوده، لا تساوي شيئاً أمام كلمة رضا يسمعها من هذا الرجل.

ويقول له: يا سيدي ألك حاجة نقضيها لك قبل أن نذهب إلى تركيا..؟

ويرد عليه الرجل المؤمن:

«لسنا في حاجة إلاَّ إلى الله سبحانه وتعالى».

ويعود القائد من حيث أتى ويترك مصر، ويعود إلى بلده، ولكن خمرة النصر لم تنسه هذا النموذج من الرجال، ويكلف واليه في مصر أن يذهب إلى العالم الجليل ليتفقد شؤونه ويحقق له مطالبه.

ولكن متى كان لأولياء الله مطالب..؟

متى كان لهؤلاء الرجال حاجة إلى غير الله..؟

ويذهب الوالي الجديد إلى منزل الرجل الرباني ويقول له:

إننا أزمعنا الرحيل إلى تركيا ونحن مقربون إلى السلطان فهل من حاجة نقضيها لك من سلطان البلاد.

ويرد الرجل الرباني:

«إننا مقربون إلى الله أكثر فهل لك أنت حاجة».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

اثر التربية الاسلامية
في
سلوك الافراد

لقد نجح منهج التربية الإسلامي في توجيه الناس إلى ربهم وردهم إلى خالقهم حتى آمن كل منهم أن الله قريب منه . . .

قريب في السر والجهر . .

قريب في الليل والنهار . .

﴿ وهو معكم أينما كنتم[(١)] ﴾

﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[(٢)] ﴾

أقرب إليه من نفسه التي هي بين جنبيه ، أقرب إليه من همسه الذي يكون بين شفتيه . .

﴿ وما تكون في شأن ، وما تتلوا منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين[(٣)] ﴾

وأحسَّ كل فرد من جيل الإسلام الأول أن الله معه يحصي حركاته ويسجل أعماله فلا بد من تنظيف سلوكه وفكره ، وتنظيف شعوره وقلبه ، لا لأن الناس معه ،

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٤

(٢) سورة ق آية رقم ١٦

(٣) سورة يونس آية رقم ٦١

وهو مضطر إزاءهم أن ينظف وإنما لأن الله معه دائمًا وفي كل لحظة.

﴿ هو معهم أينما كانوا[(١)] ﴾

فإذا كان في مقدور الفرد أن يستتر من الناس، فهل في مقدوره أن يستتر من الله . . ؟ وإذا كان في مقدوره أن يغلق على نفسه بابا لا يراه منه أحد، فهل في مقدوره أن يفعل ذلك مع الله . . ؟

فإذا أقام سياجاً بينه وبين الناس فما هو بمستطيع أن يقيم سياجاً بينه وبين الله

﴿ يعلم السر وأخفى[(٢)] ﴾

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين[(٣)] ﴾

عندها كان الفرد يؤدي عمله، وهو يرى ربه معه في كل ما يأتي من أمر أو ينتهي عن نهي. فكان الفرد لا يتعامل مع مجتمعه، ولكن تعامله مع ربه، أو بعبارة أخرى، يتعامل مع هذا المجتمع والشاهد الله . .

. . هذا الفرد يتحرج أن يخدع غيره، وهو يعلم أن الله معه، ويمتنع عن ارتكاب جريمة في جنح الظلام وهو يحس أن عين الله تراقبه . .

فإذا جمحت الشهوة في داخل الإنسان، وسقط سقطته، وكان ذلك حيث لا ترقبه عين ولا تناله يد الحاكم، تحولت نفسه في داخله، نفساً لوامة عنيفة، ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام الحاكم أو ولي الأمر ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحا تفاديا من سخط الله عليه أو عقوبة الآخرة . . .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٧

(٢) سورة طه آية رقم ٧

(٣) سورة يونس آية رقم ٦١

والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه النماذج من الرجال والنساء الذين صفت روحهم وطهرت سريرتهم . .

ولم يكن في مقدور الفرد منهم أن ينال من غيره في غيبته ، وهو يعلم أن كلامه وحديثه يسجل . .

. . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[1] . .

رقيب يسجل كل حركة ، يسجل كل همسة ، يسجل كل كلمة ، كل خاطرة تخطر بالفؤاد . .

روى الإمام أحمد بسنده عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنهما . .

قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن الرجل ليتكلم

بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه . . .

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى بها سخطه إلى يوم يلقاه[2] »

وكان هؤلاء الرجال من جيل الإسلام الأول نصب أعينهم دائمًا قول الله تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون[3] ﴾

ليست الكتابة فقط ، وليس التسجيل فحسب . . ولكن هناك ما هو أكبر من ذلك وأعظم هناك ما يشبه أجهزة المراقبة ، أجهزة المتابعة ، التي يخيل للفرد المسلم أنها تكاد تصور حركاته ، وترصد سكناته ، وتكشف عن سلوكه . .

أهي أجهزة للتصوير والرصد . . ؟ تكاد تلازم الإنسان من ولادته حتى وفاته . . ؟

---

(١) سورة ق آية رقم ١٨

(٢) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر وأخيه

(٣) سورة الانفطار آية رقم ١٠

ولِمَ لا.. ألم يقل الله تعالى في محكم آياته:

﴿ وأن سعيه سوف يرى[1] ﴾

أهناك مانع لغوي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة..؟

وأن يعرض على العبد أعماله التي قام بها في الدنيا..؟

أعماله من خير وشر.. وما المانع أن يشاهد القاتل صورته وهو يغتال خصمه في جنح الظلام..؟

ويشاهد الفاجر صورتـه وهو يسرق عرض أخيه المسلم، عندما كان غافلاً أو غائباً..؟

وهل هناك مانع يمنع المؤمنين من مشاهدة أعمالهم التي قاموا بها في سبيل الله وفي إعلاء دينه، وفي نصرة عباده..؟

إن آيات القرآن تؤكد ذلك وتقرره... قال تعالى:

﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً[2] ﴾

وقول الله تعالى:

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا[3] ﴾

بمثل هذا كان منهج التربية في الإسلام يعمل عمله في نفوس جيل القرآن الأول.. وإذا كانت هذه هي الدنيا، فهناك الآخرة، دار الحساب والجزاء فأين المفر...؟

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه[4] ﴾

أيستطيع أن يذهب إلى بعيد..؟ وأن يختبىء في مكان لا يراه أحد..؟ أم أن ذلك محال..؟

---

(١) سورة النجم آية رقم ٤٠

(٢) سورة الكهف آية رقم ٤٩

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣٠

(٤) سورة الانشقاق آية رقم ٦

إن كتاب الله يقول في حسم قاطع

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾

فلا بد من العرض حيث لا حجاب ولا ستر

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية[١] ﴾

ثم ماذا.. عندما يقف العبد في يوم الحساب..؟ يقال له:

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً[٢] ﴾

استعرض مافعلت .. فأمامك كل ما أتيت أو اقترفت، فإن نسيت أو تناسيت فالله لا ينسى...

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه[٣] ﴾

إنه يوم الجزاء، يوم الأسرار المكشوفة والأعمال المعروضة..

﴿ يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر[٤] ﴾

أينكر العبد ما سجلته الحفظة عليه..؟ أيرتاب في أعماله المصورة المعروضة أمامه..؟

إذن فهناك أعضاؤه التي اقترفت، وجوارحه التي ارتكبت، تنطق ولا تصمت وتصدق فلا تكذب، وتقر ولا تنكر..

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[٥] ﴾

وهكذا يرى أن منهج التربية في الإسلام منهج فريد بين مناهج التربية في العالم كله القديم والحديث..

لأنه يوجد داخل الفرد، وفي داخل الجماعة، أجهزة متابعة أجهزة مراقبة هذه الأجهزة.. لا تضلل ولا تنخدع، ولا يحتال عليها..

(١) سورة الحاقة آية رقم ١٨
(٢) سورة الإسراء آية رقم ١٤
(٣) سورة المجادلة آية رقم ٦
(٤) سورة الطارق آية رقم ٩
(٥) سورة النور آية رقم (٢٤)

بخلاف المناهج الأخرى.. التي تهمل هذه الرقابة.. وتوجد أجهزة متابعة خارجية...

هذه الأجهزة.. يمكن أن تخدع وتنخدع، وتضلل وتضلل، وترتشي ويحتال عليها..

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن.. ما دام في الإسلام منهج متكامل في التربية..

فلماذا تركنا القريب إلى البعيد..؟

واخترنا الضار على النافع..؟

وتركنا هدى الله إلى ضلال الشيطان..؟

لنناقش على مهل رجال التربية والمهتمين بالعلوم الإنسانية في العالم العربي والإسلامي.. لنرى أهي التبعية للغرب والشرق.. أم الجري وراء كل جديد..؟

١٢ ـ التربية في الإسلام: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني
١٣ ـ تاريخ التربية: للأستاذ مصطفى أمين ـ أستاذ التربية والأخلاق بمدرسة دار العلوم ـ مطبعة المعارف بمصر
١٤ ـ التربية وطرق التدريس الأستاذ/ صالح عبد العزيز وزميله ـ دار المعارف بمصر
١٥ ـ الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي
دكتور محمد البهي ـ الطبعة السادسة ١٩٧٣م
دار الفكر ـ بيروت
١٦ ـ النهج الحديث في أصول التربية وطرق التدريس جـ ١
للأستاذ/ حامد عبد القادر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
١٧ ـ تفسير الإمام البيضاوي
للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي
١٨ ـ موسوعة عباس محمود العقاد
المجلد الخامس ـ طبع دار الكتاب العربي
بيروت
١٩ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية
للأستاذ/ أبي الحسن علي الحسيني الندوي
٢٠ ـ الحلول المستوردة
للدكتور/ يوسف القرضاوي
٢١ ـ «بروتوكولات صهيون»
مطبوعات المكتب العربي الفلسطيني ـ بيروت
٢٢ ـ دولة القرآن
للأستاذ/ طه عبد الباقي سرور
دار نهضة مصر للطبع والنشر
٢٣ ـ دستور الأخلاق في القرآن
دكتور محمد عبد الله دراز
دار البحوث العلمية ـ الكويت: الطبعة الأولى

٢٤ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز

تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي

تحقيق الأستاذ: محمد علي النجار

طبع: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

٢٥ ـ رجال أنزل الله فيهم قراناً

د. عبد الرحمن عميرة

طبعة دار اللواء ـ الرياض